«الجمهور القاتل»

ذاك الحشد الذي لا يُرى

نبيل الملحم

«الجمهور القاتل»

ذاك الحشد الذي لا يُرى

نبيل الملحم

برلين - صيف ٢٠٢٥

«الجمهور القاتل»

ذاك الحشد الذي لا يُرى

لوحة الغلاف: لقمان أحمد

اخراج: حسين خان

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إلى الضمير:

الذي ظلّ يهمس في الزوايا المظلمة، حتى حين غرقنا جميعًا في التصفيق.. الغريب الذي لا يُرى في الحشود، لكنه الوحيد الذي بقي مستيقظًا.

- لا يفاوض، ولا يصفّق، ولا يخون نفسه.

إن كان ما زال حيًّا، فليقرأ هذه الصفحات ويشهد عمّا دفناه بأيدينا ثم بكينا عليه.

هل سأكتفي بهذا الإهداء؟

- لا.

هذه رسالة أيضًا لمن يرغب في أن يكون قبيحًا.

كيف لنا أن نطرق البوابة، وأعني بوابة «الجمهور القاتل»؟

ثمة بوابات لا بوابة واحدة، غير أن بوسعنا، أن نبدأ بفتح مغاليق بوابة «القلعة»، وليست كما كل القلاع التي نعرفها، إنها بوابة **«كافكا»**، هناك، في تلك **«القلعة»** لا تظهر السلطة في صورة العرش، بل في غيابه.. «القلعة» هنا، ليست بناءً ماديًا يمكن الوصول إليه أو التفاوض معه، بل هي تمثيل للمركز الغائب، للسلطة التي لا تتجلى إلا عبر آثارها.. عبر مؤسساتها الغامضة، ورسائلها الملتبسة، ووكلائها الذين لا يعرفون أنفسهم طبيعة المهمة التي ينفذونها.

«القلعة» بهذا المعنى، ليست مجرد نظام بيروقراطي عبثي كما يقرأه البعض، بل نحن أمام منظومة تنتج **«الطاعة»**، ومن رحم **«الطاعة»** تنتج **القطيع**.. هو **قطيع** لايخدم **«القلعة»** لأنه مرغم فحسب، بل لأن وجوده لم يعد مفصولاً عن فكرة **«الطاعة»**.. **«طاعة»** لمركز قد يُرى، وقد لايُرى ولايُفهَم ولا يُناقَش.. **«القلعة»** هنا، كما الأساطير القديمة، تُغوي كما تُرهِب، وتظل دائماً هناك:

- قريبة وبعيدة، ملموسة ولا مرئية.

من هذا التمهيد سنبدأ الكلام، سنبدأ من الأسئلة:

- ما معنى أن تُبنى السلطة على الغياب؟

- ما الذي يجعل **«القطيع»** يظل قطيعاً حتى من دون سوط؟

حدث هذا للموكيل **«ك»** في رواية كافكا، فهو الأداة في لعبة لايعرف قواعدها؟

في عالم كافكا، **«القلعة»**، تتكشّف السلطة على هيئة مركز غير مرئي، لا يقبع في العلن، ولا يمكن الوصول إليه بسهولة، هو مركز لا يُرى، لكنه يفرض وجوده بقوة، ليس من خلال الحضور المادي، بل من خلال منظومة علاقات معقّدة من التحكم والتوجيه، تتم عبر طبقات من الوكلاء والوسطاء، وفي هذا السياق، يصبح **القطيع** أداة تنفيذ لا وعي

لها، تلتزم بالتعليمات التي لا تعرف كامل سياقاتها، ولكنها تخضع لها بدافع البقاء، وأحيانًا بدافع اعتقاد ضمني بالضرورة.

تُغذي السلطة في «**القلعة**» مفهومها الغامض من غيابها، فغياب المركز هو الذي يضفي عليها هالة من القدسية والخوف، ويخلق حاجزًا نفسياً يجعل الفرد يشعر بأنه لا يملك القدرة على التعامل معها بشكل مباشر.. هذا الغياب، بدل أن يقلل من هيبة السلطة، يعزّزها ويعمّقها، فالسلطة التي لا تُرى، أو التي لا يمكن رؤيتها بالكامل، تظل موضع تساؤل دائم، لكنها أيضًا تبقى فوق النقد، كما أنها تغوي الخضوع عبر توفير أوهام المشاركة، إذ تمنح القطيع دورًا شكليًا في دائرة السلطة، فتجعل «**الطاعة**» تبدو خيارًا واعيًا وليس فرضًا قسريًا.

القطيع في «**القلعة**» ليس مجرد مجموعة من الخاضعين، بل هو كيان حي يتغذى على الطاعة نفسها.. الطاعة هنا، ليست بالضرورة **نقيض الحرية**، بل يمكن قراءتها بوصفها **استراتيجية للبقاء**، في منظومة غياب المركز، يصبح الخضوع للسلطة طوق النجاة من الفوضى، والتماهي مع القطيع، هو شكل من أشكال الحماية النفسية والاجتماعية، ومع ذلك، يبقى السؤال:

- هل الطاعة فعلاً خيار حر، أم أنها توظيف عميق لمخاوفنا وأحلامنا بمكان آمن؟

داخل «**القلعة**»، نجد مجموعة من الوكلاء الذين يمارسون السلطة نيابة عن المركز الغائب، هؤلاء الوكلاء غالبًا ما يكونون جزءًا من القطيع ذاته، ما يجعلهم حلقة معقدة في سلسلة **الطاعة**، فهم لا يملكون الصورة الكاملة، ولا يدركون دومًا الهدف النهائي لما يفعلونه، لكنهم ينفذون التعليمات بدقة، خوفًا من فقدان موقعهم أو من عواقب الرفض، وهذا ما يجعل السلطة في «**القلعة**» أكثر من مجرد علاقة قهر، بل هي شبكة معقدة من التبادلات النفسية والاجتماعية، حيث يتداخل الخوف مع الأمل، والطاعة مع الانتماء.

من خلال هذا الإطار، نسعى في هذا البحث إلى محاولة فهم:

- كيف تصنع السلطة وجودها من غيابها؟

- ما هي الدوافع النفسية والاجتماعية التي تحوّل **القطيع** إلى طاعة دائمة؟

- كيف يمكن قراءة **«القلعة»** كرمز للأنظمة السياسية والاجتماعية الحديثة التي تحكم من خلف الكواليس؟

- ما هي آليات تحويل الأفراد إلى وكلاء ينفذون إرادة مركز لا يُرى؟

هل بات علينا التذكير بـ «فرانز كافكا»؟

حسناً، فرانز كافكا (١٨٨٣–١٩٢٤) هو كاتب تشيكي-يهودي كتب بالألمانية، ويُعتبر من أعظم الأدباء في القرن العشرين، تُعرف كتاباته بطابعها العبثي، والرمزي، والوجودي، حيث يعكس قلق الإنسان الحديث من السلطة، البيروقراطية، والاغتراب، هذا هو الاختزال الذي اعتدنا عليه حال اللجوء إلى محرك البحث «الجنرال غوغل» للتعرف على سيرة أبطالنا.

عن «ك» في «القلعة»:

«ك» هو اسم بطل الرواية، وهو مسافر يصل إلى قرية يحكمها مركز السلطة في **«القلعة»**.. طوال الرواية، يكافح **«ك»** للوصول إلى القلعة وفهم نظامها، لكنه يواجه تعقيدات بيروقراطية.. جدرانًا من الغموض، وصراعات مع الوكلاء والموظفين.

يمثل **«ك»** الإنسان العادي الذي يحاول فهم والاندماج في نظام لا يرحب به، ولا يسمح له بفهم قواعده.. «ك» معزول، غريب، حتى بين أهل القرية، يرمز إلى اغتراب الإنسان في العصر الحديث، **والقلعة**، كمؤسسة سلطة لا توضح قوانينها ولا تتفاعل بشكل منطقي مع **«ك»**، ما يعكس صعوبة التفاعل مع الأنظمة الإدارية المعقدة.

محاولات «ك» للتواصل والتفاهم تتحطم أمام جدران من اللامعنى والروتين، ما يثير شعورًا بالعبث والضياع، لدى بطلنا.

الجمهور القاتل:

في قلب «**القلعة**» يسكن «**الجمهور القاتل**»؛ ذلك الحشد غير المرئي الذي لا يتحرك ككيان واعٍ أو مقاوم، بل يعمل كداعم خفي للسلطة الغامضة، التي لا تظهر بشكل مباشر لكنها تظل مسيطرة عبر طقوسها وأجهزتها.

هذا الجمهور ليس ضحية فحسب، بل شريك غير مرئي في بناء شبكة **الطاعة**، إذ يتقبل وجود **القلعة**، ويلعب دورًا مزدوجًا: «من جهة يخضع، ومن جهة أخرى يكرس وجود السلطة من خلال سكوته، وغيابه عن المقاومة الحقيقية».

في هذا المشهد، لا تحتاج السلطة إلى «سوط» واضح، **فالجمهور القاتل** هو الذي يوقع حكمه على نفسه بقبوله وصمته، و:«يغدو في الوقت ذاته حارسًا ضمنيًا للقلعة، وحاميًا لمركزها الذي لا يُرى».

- كيف يساهم الجمهور (القطيع) في استدامة السلطة اللامرئية؟

- ما الذي يجعل الجمهور يتقبل أو يغض الطرف عن الهياكل القمعية؟

- هل هذا الجمهور قاتل بالمعنى الحرفي، أم أن «القتل» هنا رمزي، لإطفاء القدرة على التغيير؟

- كيف تتقاطع هذه الفكرة مع مفهوم «**كافكا**» عن الاغتراب، والبيروقراطية، والعبث؟

هذه الأسئلة، قد نجد إجاباتها عندك، فأنا رجل لا يتقن الإجابة:

الجمهور في «القلعة» ليس فاعلًا مستقلًا، بل هو جزء لا يتجزأ من منظومة السلطة من خلال طاعته، وتكرار سلوكياته، وامتثاله للروتين، يساهم القطيع في إدامة النظام بشكل غير مباشر، هذا الجمهور يشكل جزءًا من

الآلة التي تُخفي المركز الحقيقي للسلطة، وتُغلق أبوابها أمام الفرد الباحث عن معنى أو تحرر.. بهذا، **لاتحتاج السلطة لأن تظهر بقوة العنف المباشر، بل تعمل من خلال جمهورها الذي يتصرف كعامل تثبيت.**

ما الذي يجعل الجمهور يتقبل أو يغض الطرف عن الهياكل القمعية؟

- يُقبل الجمهور بما يُفرض عليه، بسبب عدة عوامل متداخلة:

- عدم اليقين يجعل الناس يختارون الطاعة على المجازفة بالرفض، خاصة في بيئة غامضة كـ **«القلعة»**.

- الروتين اليومي والقواعد غير المعلنة تتحول إلى منطق حياة، فتغدو الطاعة عادة لا يُشكك فيها.

- الجمهور يعتقد أنه جزء من النظام، حتى وإن لم يكن كذلك فعليًا، وهذا يُقنعه بالقبول، إنه «وهم الشراكة».

- شعور الاغتراب يجعل الأفراد معزولين، مما يضعف فرص التنظيم والمقاومة.

- **هذا الجمهور «الطاهر»، سيتحوّل إلى «الجمهور القاتل».**

هل هذا الجمهور فعلاً هو القاتل بالمعنى الحرفي؟

القتل هنا رمزي أكثر مما هو حرفي، لكنه قاتل بنفس القوة.. الجمهور «يقتل» فرصة التغيير والتحرر عندما يختار الصمت، أو الطاعة، أو اللامبالاة.. هو يقتل القدرة على التفكير النقدي، ويغلق الأبواب أمام الثورة أو المقاومة، وبهذا المعنى، يكون الجمهور قاتلًا لأنه يشارك في موت الحلم بالحرية والعدالة، ويدعم استمرار **القلعة** الغامضة ككيان مستبد.

يساهم الجمهور في **إدامة السلطة** من خلال طاعته التي لا تُشكك، وامتثاله للروتين اليومي الذي تفرضه **«القلعة»**، هذه الطاعة لا تكون بالضرورة من باب الإيمان أو الولاء، بل هي غالبًا رد فعل على الخوف

من المجهول، والاعتياد على حالة الاغتراب والانعزال التي تفرضها البيروقراطية الغامضة.. لا يحتاج المركز الذي لا يُرى أن يمارس العنف المباشر، **فالجمهور بتمسكه بالسكون والطاعة، يصبح أداة تثبيت للهيمنة**، ووسيطًا يجعل السلطة تحافظ على غموضها وقوتها.

قوى التطرف، هم بناة قلاع، لهم نموذجهم من القلاع، فهي قلاع مبنية ليس من الاسمنت أو الطوب،لا، هي لا تنتمي إلى أيّ من مفردات العمارة.. مادتها:

- **الكراهية.**

الكراهية ليست فعلًا عشوائيًا، بل هي **غالبًا نتاجٌ منظَّم لمشروع سياسي–أيديولوجي**، وقد استخدمتها الأنظمة الشمولية، سواء ذات الطابع القومي أو الديني، بوصفها أداة تعبئة، وسلاح تبرير، وأداة شرعنة للعنف الجماعي.

بين تجربة النازية. الفاشية في أوروبا القرن العشرين، وتجربة التطرف الإسلامي في سوريا بعد ٢٠١١، يمكن رصد خطوط تشابه مرعبة في بناء العدو، في قلعته، وفي استثمار الغوغاء، وتسليح الغريزة، وتجهيل المجتمعات، لا سيما عندما يكون «الآخر» غير معروف إلا من خلال صور مشوّهة صُنعت لأغراض السيطرة والقتل.

أولًا: الكراهية كأداة أيديولوجية عند الفاشيين والنازيين:

- **تصنيع العدو**، جَعَل النازيون من اليهود والسلاف والغجر «عدوًّا بيولوجيًا» (معركة مع الازل).

- صوّر الفاشيون الإيطاليون الشعوب الأفريقية كأعراق دنيا، وعدوًّاحضاريًا يجب «تمدينه» بالقوة، كما لو الأفارقة ليسوا أصل الحضارة الإنسانية، كما لو أهرامات مروي، لم تكن شامخة في السودان وهي تزيد عن ٢٠٠ هرم ناطقة بمجد أفريقي خالص.. كما لو أن ليس لزيمبابوي مدينة حجرية بنيت دون

اسمنت في القرن الحادي عشر، وكما لو أن الفاشيست لايدركون قيمة تماثيل ايفي وبرونز بنين، وقد سُرقت من نيجيريا لتعرض في متاحف أوروبا.

ثانياً: الأسطرة التاريخية:

- إعادة اختراع الماضي، فقد النازية استحضرت «العصر الآري الذهبي»، والفاشية استحضرت «روما الإمبراطورية».

- تم تقديم «الآخر» على أنه عائق أمام عودة المجد.

ثالثاً: الدعاية والبروباغندا:

- قاد غوبلز ماكينة إعلامية ضخمة شيطنت اليهود وزوّرت الواقع.

- تم تسليح المدرسة، والسينما، والمناهج لغرس الكراهية منذ الطفولة.

رابعاً: التعبئة الجماهيرية والغوغاء:

- تم نزع الفردية وتحويل الجمهور إلى كتل صاخبة مستعدة للقتل.. هذا الكلام على وجه التحديد يستوقفني أكثر من سواه، يقودني إلى سؤال:

الجلاد الذي يُشرف على حفلة الإعدام، هل يشعر بشيء؟ هل يرتجف قلبه؟ هل يرى في وجه من يُشنق ملامح إنسان؟ أم أنه فقط يُنفّذ؟ وهل هو بشر نُزعت عنه فرديته، أم مجرد آلة ترتدي زيّ إنسان؟

في السجون وغرف التعذيب، قد يأكل الجلاد معك، يضحك، يحكي عن أطفاله، ثم يعود ليغرس السوط في ظهرك، أو يشدّ الحبل حول عنقك، وكأن شيئًا لم يكن، ليس لأنه بلا قلب، بل لأنه أُخضع لتجريد مُمنهج من فرديته، أُقنع أن لا يكون هو.. أن لا يرى.. أن لا يشعر، لكن، هل هذا يعفيه من المسؤولية الأخلاقية؟

- أبدًا.

- الفردية لا تُنتزع بالكامل... بل تُخدّر، تُقمع، لكنها تظل هناك، شاهدة صامتة.

هل ثمة ما يماثل هذا في التجربة السورية؟

١. هي بنية اجتماعية قائمة على الجهل المتبادل بين الطوائف (ويوماً بعد يوم ثمة ما يثبت أن السوريين لا يعرفون بعضهم بعضاً، وأن السوري «غير راض عن سوريته» وهذه جملة أنقلها عن ياسين الحاج صالح، وكان قالها عبر فيلمي التسجيلي «هبة يك» وزرعتها في رأسي، وسيعمّق قناعتي هذه فشل «دولة الأسد الرديئة» في بناء مواطنة جامعة، وقد آل حكم البلاد إليهم لما يزيد عن نصف قرن.

٢. إعادة إنتاج العدو بلغة دينية:

تم شيطنة العلويين بوصفهم «نصيرية كفار»، والدروز صُوّروا كـ«زنادقة» و«كفار باطنية»، أما الكرد، فقد وصفوا كـ «انفصاليين» و«عملاء للغرب، بل بوصفهم وافدون على البلاد وليسوا من أصول من سوريّة، مع أن الوجود الكردي في بلاد الشام منذ عصور ما قبل الإسلام، وازداد رسوخاً في العهدين الايوبي والعثماني.. صلاح الدين نفسه كردي، حكم من دمشق وكان لقومه انتشار واسع في سوريا.

٣. آليات إنتاج الكراهية:

- التحريض الطائفي في المساجد والخطب والدروس (ثمة الكثير من الأشرطة المسجلة متوفرة على اليوتيوب)، وربما من مشاهير دعاة السواطير وجدي غنيم المصري، وعدنان العرعور السوري، وقنوات طافحة مثل «وصال» و «صفا»، هذا عداك عن يوتيوبات محمود شعبان، وهو يصرخ :«هاتولي راجل».

- كيف حدث ذلك؟

في المجتمعات الخارجة من رحم الحرب، أو الغارقة فيها، غالبًا ما ينهض الخطاب السياسي على أنقاض المعاني المشتركة، متكئًا على سرديات الانقسام والثأر، ومع صعود الجماعات الإسلامية المتطرفة (القاعدة باشتقاقاتها. أبرزها

جبهة النصرة) إلى سدة النفوذ والحكم، يتحول الخطاب إلى أداة قمع رمزية، لا تستهدف الخصوم العسكريين فقط، بل تعيد تشكيل وعي الجمهور، بحيث يُعاد تعريف «العدو» على أسس طائفية أو أيديولوجية صارمة.

من هذا المنطلق، مثّل استيلاء **جبهة النصرة** على السلطة في دمشق وإسقاط حكم بشار الأسد، لحظة انعطاف حاسمة في بنية الخطاب العام، إذ لم يعد الصوت الديني المتشدد مجرد تعبير عن الهوية، بل أصبح **المرجعية العليا في التشريع، والإقصاء، والتبرير الأخلاقي للقتل.**

في هذه المرحلة، لم يعد العنف يُبرَّر فقط كضرورة أمنية، بل صار يُروَّج له باعتباره «واجبًا شرعيًا»، وأُعيد تشكيل الفضاء العام وفق معايير الولاء والعداء، حيث تسقط المواطنة لتحل محلها **البيعة**، ويندثر النقاش ليصعد **«الجمهور القاتل»**، لا بوصفه تجمّعًا عشوائيًا من الغوغاء، بل كنتاج هندسة خطابية دقيقة، تُروّج للخوف، وتُحرض على الآخر، وتُلبس القتل ثوب الطهارة الدينية، وهكذا ينشأ التكفير، ومن بعده:

- تم اجتياح قرى درزية في الجنوب دون تمييز بين المدني والمقاتل، من نتائجها إحراق ٣٢ قرية إحراقاً كاملاً، وكان هذا عبر أحداث أغسطس ٢٠٢٥.

أما عن «العلويين، فما أن استولت جبهة النصرة على السلطة في دمشق، حتى بدأت موجة مسعورة من القتل والخطف والسبي، والاستيلاء على القرى أو حرقها، ففي السادس من مارس ٢٠٢٥، اثر ادعاء تمرد من أتباع النظام السابق، أسفر عن مجزرة ضد المدنيين العلويين في محافظتي اللاذقية وطرطوس، تخللتها إعدامات ميدانية لآلاف من المدنيين (بعض التقديرات تشير إلى ١٣ ألف قتيل).

ما جرى بحق الإيزيديات.. استرقاق وبيع في «أسواق العبيد»:

قبل استيلاء «جبهة النصرة» على السلطة في دمشق، كانت شقيقتها «داعش» قد نفذت عشرات المذابح بحق السكان في سوريا والعراق، ومن

بينها مذبحة «شنغال» بمواجهة الايزيديين، حيث قام الدواعش بمجازر اجهزوا فيها على الالاف من الرجال، اما النساء والفتيات فتم اعتقالهن وبيعهن فيما يُعرف بـ «سوق العبيد»، أو «سوق السبايا».. كنّ يُعرَضن، محبوسات في قفص سيارة نقل مكشوفة، ويُعرَضن للبيع برفقة كاميرات تلفزيونية محترفة، كما على كاميرات الهواة.

في بعض الحالات، أسرن وعلقن بالأسلاك الشائكة أو الحواجز، وكن يتعرضن للضرب والاغتصاب، ويُعاملن كالمواشي امام الداعشيين الذين يختاروهن.

توالى نشر تقارير أنّ النساء الإيزيديات عُرضن بأسواق عبيد في مدن مثل الرمادي، الرقة، الفلوجة، والموصل، بأسعار متفاوتة تبدأ من دولارات معدودة إلى آلاف الدولارات حسب السن والجمال، بينما بعض النساء كان يُمنحن كـ «هدية في عيد الفطر» إلى مقاتلي داعش.

بعض عمليات البيع جرت عبر الإنترنت وعلى تطبيقات مشفّرة مثل تلغرام، حيث نُشرت صور وتفاصيل عن الفتيات المعروضات للبيع.

سي ان ان وأمنستي، وُثّقتا في تقاريرهما، شهادات من الفتيات تعرضن للعنف والاغتصاب كجزء من خطة «جهادية»، وتم تداولهن في أسواق مثل الموصل والرقة كـ «سبايا».

ثمة شهادات مسجلة، ليست مجرد حكايات؛ بل هي نداءات إنسانية مشروعة تطل للمرة الأولى من قلب هول الاستعباد والاغتصاب، ففي أصوات الناجيات، يجد العالم ترنيمة مقاومة وصدى مصير الإنسانية.

الكثير من الجرائم التي ارتكبتها التنظيمات الجهادية – كتنظيم داعش – تستند إلى تفسيرات متطرفة ونصوص دينية، ومن أبرز ما يستند إليه هؤلاء في تبرير جرائمهم وتسويغها، الآيات المتعلقة بالسبايا كـ «**إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ**»، فبالاتكاء

على هذه الآية، برر الدواعش والفصائل المشتقة من تنظيم القاعدة «جواز» ممارسة الجنس مع الإماء والسبايا، واعتبر النساء الايزيديات «كافرات»، لاحرمة لدمائهن أو أعراضهن.

مقارنة بين النموذجين (النازي–الفاشي والإسلام الراديكالي نموذجه في سوريا):

العنصر	(النازية/الفاشية)	سوريا المعاصرة (الإسلام السياسي)
هوية العدو	يهودي، سلافي، زنجي	علوي، كردي، درزي، علماني
أسس الكراهية	عنصرية بيولوجية	تكفير ديني/خيانة وطنية
أدوات التعبئة	بروباغندا قومية	خطب دينية، سوشال ميديا
الغوغاء	حشود موالية للزعيم	حشود موالية للشيخ/الأمير
شرعية العنف	تفوق العرق	فريضة الجهاد

الغرائز والجهل كمسرّعات للكراهية:

- لم تكن الكراهية عقلانية، بل **شُحنت بغرائز الخوف والرغبة في الانتقام.**
- الجهل بالآخر مكّن من اختزاله في صورة وحشية.
- هذا ما جعل القتل طقسًا، لا فعلاً سياسيًا (مع نظام آل الأسد، ومع النظام اللاحق).

السوشال ميديا كمسرّع للكراهية في التجربة السورية:

- أتاحت وسائل التواصل لأي خطيب، داعية، أو أمير حرب أن يبث خطاب الكراهية دون رقيب.

- انتشرت فتاوى تكفيرية، ومقاطع قتل وتعذيب، وعُرضت كـ «بطولات».

تحويل القتل إلى فرجة:

مقاطع الذبح والرجم لم تكن فقط أداة ترهيب، بل أصبحت مادة تداولية، يُعلّق عليها الناس، تُعاد مشاركتها، ويتحول الجسد المقتول إلى مشهد يومي، وقد يكون التكرار قد جرّد الموت من رهبته، فصار الجسد مجرد ملفٍّ صامت لا أكثر، لكن لا أحد ينجو تمامًا من النظرة الأولى.

إعادة تشكيل وعي الشباب:

- كثير من المنضمين للتنظيمات لم يتأثروا بخطاب المساجد بل بمقاطع يوتيوب وتلغرام وتيك توك.

- وُظّف المحتوى البصري للتأثير النفسي الفوري، خاصة في البيئات الفقيرة والمنكوبة.

الاستثمار في الخوارزميات:

تنتصر خوارزميات فيسبوك ويوتيوب للمحتوى المثير، ما جعل فيديوهات العنف والتكفير تحظى بانتشار أسرع من أي خطاب عقلاني أو سلمي معتدل.

تزييف الهوية ونشر الإشاعة:

- أُستخدمت حسابات وهمية لنشر الشائعات ضد الأقليات (مثل اتهام الأكراد بتهجير العرب، أو تصوير الدروز كعملاء لإسرائيل (دون النظر

إلى التحوّلات التي آلت إلى ظهور أصوات تطالب بالحماية الإسرائيلية مترافقة مع مجازر تُرتكب على أرضهم).

- نشأت جيوش إلكترونية تديرها فصائل ومخابرات داخلية وخارجية.

أمثلة واقعية من المحتوى المنتشر:

- فيديوهات تنظيم داعش بعنوان «صليل الصوارم» التي دمجت بين الموسيقى الحماسية ومشاهد الذبح والتكبير، ومزيج من أفلام وأشرطة أجدني راغباً في التوقف عندها، فالدعاية الجهادية المعاصرة لم تعد مجرد تسجيلات وعظية أو بيانات صوتية متقطعة كما كانت في بدايات تنظيم القاعدة، بل تطوّرت لتصبح نظامًا بصريًا متكاملًا، يستلهم من سينما هوليوود ومن ألعاب الفيديو الحديثة أدواته وتقنياته، ويعيد توظيفها في خدمة سردية «الجهاد العالمي» أو «الخلافة»..

في إنتاجات داعش خاصة، بدا التأثر الواضح بأفلام الحرب والبطولة الأمريكية، الكاميرات المحمولة على الرأس، التصوير بزاوية القناص، مشاهد القتال بتقنية «الحركة البطيئة»، والموسيقى الحماسية التي ترافق المشاهد، كل ذلك يحاكي سينما الأكشن الأمريكية وألعاب القتال بل إن «البطل» في هذه الأفلام الجهادية لا يختلف كثيرًا عن بطل أفلام هوليوود: يقف واثقًا، ينظر في عين الكاميرا، يُقدم على الموت كخاتمة مجيدة، وتُروى قصته كأنها **ملحمة فردية** تمزج البطولة بالتضحية، لكنها هنا مغمّسة بدماء حقيقية.. إنه **الرعب بوصفه فنًا دعائيًا**، حيث تُستخدم أدوات السينما لا لخلق الخيال، بل لتحويل الواقع إلى كابوس مُسرح.

-محتوى مرئي نُشر على تيك توك، يصور أطفالًا يؤدون مشاهد تمثيلية لقتل «المرتدين» بإشراف عناصر مسلحة.

- منشورات متكررة على فيسبوك وتويتر من حسابات مزيفة تتحدث عن «خطر التوسع الكردي» أو تنشر إشاعات عن «تحالفات درزية–إسرائيلية»، ما يغذي المخاوف ويخلق رأيًا عامًا عدائيًا، معتمدين على

حقائق «من الهامش»، وكما يقول الكاتب الإسباني سانتياغو ألبا ريكو: «حين تتكرر الحقيقة عند الهوامش تصبح بروباغندا».

- استخدام تطبيقات مغلقة كـ«تليغرام» لتوزيع محتوى تعبوي وتعليمي حول «كيفية صناعة العبوات» أو «طرق قتل المرتدين»، مما يجعل العنف مشروعًا منزليًا.

كيف كان لهم ذلك؟

سؤالي وربما أيضاً هو سؤال قارئي: «كيف كان لهم ذلك؟

- تعالوا نهتدي بتاريخ النازية:

كيف استطاعت النازية أن تُقنع قطاعًا واسعًا من الألمان، بل من الأوروبيين، بقبول – بل والمشاركة أحيانًا – في إبادة جماعية على أساس بيولوجي للسلاف واليهود والغجر؟

- كيف جعلت من هؤلاء **عدواً بيولوجياً** لتلك الشعوب، أعني بهؤلاء: **«الجمهور القاتل»**؟

- كيف كان لهم ذلك؟ هنا بعض المفاتيح لفهم الآلية:

١. التأصيل الأيديولوجي – العِرق كعلم كاذب:

النازيون استندوا إلى ما أسموه بـ«العلوم العرقية» الزائفة، التي ادّعت وجود تفوق بيولوجي للعرق الآري (الألماني-الشمالي) مقابل دونية وراثية لليهود والسلاف والغجر.. كانوا يروّجون لفكرة أن «النقاء العرقي» هو ما يصنع أمة قوية، وأن «العناصر الدونية» تفسد **الجسد الجماعي للأمة**.

٢. إعادة تعريف العدو.. من خصم سياسي إلى خطر بيولوجي:

لم يُقدَّم اليهود كخصوم سياسيين أو دينيين، بل كـ«فيروس» داخل الجسد الألماني، يشبه الطاعون أو السرطان، هنا اللغة حوّلت الإبادة من عمل سياسي إلى ما يشبه «العملية الجراحية» لحماية الأمة.

٣. الاستفادة من الإرث الأوروبي القديم في معاداة السامية:

لم يبدأ النازيون من الصفر، كانت أوروبا، خصوصًا في القرون الوسطى والحديثة، ممتلئة بخرافات واتهامات ضد اليهود (قتل المسيح، تسميم الآبار، إلخ).. النازية أعادت توظيف هذا الإرث لكن بلبوس علمي حديث مزيف.

٤. استخدام البروباغندا بفعالية هائلة:

وزير الدعاية النازي «جوزيف غوبلز» أدار ماكينة إعلامية ضخمة شيطنت اليهود بشكل يومي: أفلام، ملصقات، كتب مدرسية، مسرحيات، بل حتى مناهج العلوم كانت تصف «سمات اليهودي البيولوجية».

٥. الخوف من الانهيار والبحث عن كبش فداء:

ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى كانت في حالة من الذل والفقر والتضخم الهائل.. قدّم النازيون اليهود والسلاف والغجر كسبب لكل تلك الكوارث، هذا وفّر نوعًا من «التفسير البسيط» لمآسي معقّدة، حدث مثل هذا يوم أحيلت هزيمة حزيران العسكرية إلى «خيانة عبد الحكيم عامر»، فكان التفسير البسيط لهزيمة معقّدة.

٦. التدرج في الإقصاء:

لم تبدأ الأمور بغرف الغاز، بدأت بالقوانين: منع الزواج بين الأعراق، حرمان من الوظائف، العزل في أحياء مغلقة، ثم الترحيل، ثم الإبادة، هذا التدرّج جعل «اللامعقول» يبدو معقولًا خطوةً بعد خطوة.

إذًا، كيف كان لهم ذلك؟

كان لهم ذلك لأنهم خلقوا سردية متكاملة: علم زائف + لغة طبية + خوف جماعي + دعاية مكثفة + بنية قانونية تدريجية، وفوق كل ذلك، استغلّوا هشاشة الإنسان وخوفه من الآخر ليجعلوا الإبادة تبدو «ضرورة دفاعية».

- هل نتوسع في أحد هذه المحاور؟

نعم سنتوسع.. إنها الدعاية:

الدعاية النازية هي السؤال الجوهري لفهم كيف نجح نظام مثل النازية في تعبئة شعب بأكمله خلف مشروع عنصري قاتل.

. الدعاية لم تكن فقط وسيلة تواصل، بل كانت أداة تشكيل وعي **وتطويع ضمير**، بل وصناعة واقع بديل تمامًا.

- كيف كانت تعمل دعاية النازيين؟

أولًا: من كان يدبرها؟

«جوزيف غوبلز»، وزير «الدعاية والتوجيه الشعبي».. كان ذكيًا بشكل مخيف، مثقفًا، متقنًا لفنون الخطابة والمسرح والسينما، ويفهم سيكولوجيا الجماهير بعمق.

- شعاره الشهير: اكذب ثم اكذب حتى يصدّقك الناس.

ثانيًا: الأسس التي قامت عليها الدعاية النازية:

١. شيطنة العدو (اليهود، السلاف، الغجر، الشيوعيون)

- وصف اليهود بأنهم طفيليات، جرذان، فيروس، تهديد داخلي خفي.

- صوّرت اليهود ككائنات تشبه الجرذان . تم تصوير الغجر على أنهم طفيليون وعالة على الدولة، والسلاف كهمج أدنى بيولوجيًا (ثمة أفلام شهيرة اشتغلت على هذا ربما أبرزها فيلم «اليهودي الأبدي»).

٢. تقديس القائد (الفوهرر):

- هتلر قُدِّم كـ«مخلّص ألمانيا»، صاحب رسالة مقدسة.

- صورته كانت تُعرض في كل بيت ومدرسة ومؤسسة.

- رُكِّب حوله هالة دينية – شبه نبوية – بتكرار ظهوره في المسيرات الجماهيرية المُتقنة الإخراج.

كان من الصعب في ظل صناعة الالهة، اكتشاف خوائها، ربما كان على «شارلي شابلن» أن يحكي مالا يحكيه «الجمهور القاتل»، ففي زمنٍ كان الرعب فيه يُكمّم الأفواه، وقف «شارلي شابلن» وحده، لا يحمل سلاحًا ولا جيشًا، بل كاميرا وقبعة وعينًا تضحك وتبكي في آن.. في «الدكتاتور العظيم»، لم يكتف بالسخرية من هتلر، بل جرّده من هالته، وفضحه برسم صورته.. حين يضحك شابلن ويضحكنا، كان يقاوم، وكام يعلّمنا أن أقسى الردود على الطغاة، هو أن نضحك.

٣. اللعب على العاطفة لا العقل:

- الحشود تُخاطَب بشعارات، لا بحجج عقلية.

- التركيز على رموز بصرية: الصليب المعقوف، الأعلام الحمراء، النسر، اللباس الموحد، مشاعل النار في المسيرات الليلية.

- اللغة كانت بسيطة، شعاراتية، تكرارية: «ألمانيا فوق الجميع»، «شعب واحد، قائد واحد، رايخ واحد».

٤. السيطرة على كل وسائط التعبير:

- أُلزمت كل الصحف بنشر خطاب موحد، لا يُسمح بأي نقد.

- «جهاز الشعب»، صمم جهاز راديو رخيص لكل بيت (غالباً لبث خطابات هتلر).

- أفلام روائية ووثائقية تشيطن اليهود وتروّج للتفوق الآري.

- التعليم: أُعيدت كتابة الكتب المدرسية لتُعلّم الأطفال «النقاء العرقي» والكراهية ضد اليهود.

- دعم الفن الكلاسيكي، وتوطيد فكرة «الموسيقى اليهودية فن منحط».. الموسيقى الآرية تمجد البطولة والقوة والتناسق، وبذلك أنكر النازيون وجود عمالقة من الموسيقيين اليهود، ومن بينهم ريتشارد شتراوس، صاحب سمفوني «الموت والتجلي» و سمفوني «هكذا تكلم زرداشت»، وقد ترك اثراً

عالمياًعميقاً في تاريخ الموسيقى العالمية، وليس وحده، فقد سبقه كورت فايل صاحب «اوبرا القروش الثلاثة» التي اشتغلها مع برتولد بريشت، ولابد أن ينضم إلى ابداعهما كارل اولف، صاحب «كارمينا بورانا» وقد تجاوزت موسيقاه زمنه حتى باتت من رموز الموسيقى الحديثة.

٥. تكرار الرسـالة:

الرسالة تُكرَّر بلا كلل، في المدرسة، في الراديو، في العمل، في المظاهرات، في الملصقات، وحتى في أفلام الكرتون .

ثالثًا: لماذا نجحت؟

- كانت مصمّمة لتحاكي اللاشعور الجمعي الألماني: الإحساس بالهزيمة، الذل، الحاجة للخلاص.

قدّمت صورة واضحة للعالم، قدمت هويتها.:. نحن ضدهم

- لعبت على المخاوف لا على الآمال: «إن لم تُصفِّ الأمة جسدها من الداخل، ستنهار».

مثال حي:

.طفل ألماني يولد عام ١٩٣٠ بجلول عام ١٩٣٨ يكون:

- حفظ نشيد الحزب.

- رأى أفلامًا تصوّر اليهود وحوشًا.

- قرأ كتبًا مدرسية عن تفوّق العرق الآري.

- انضم إلى «شبيبة هتلر».

- عاش في عالم لا يُعرض فيه إلا وجه القائد وشعارات الحزب.

بالنسبة له، هذا هو «الواقع» هذه هي الحياة، من مائدة الأم، وصولاً للزي العسكري.

هل اكتفت النازية بما سبق؟

حتى «الطب»، استثمروا به، فاستثمار النازيين للطب والعلوم الطبية في مشروعهم الإبادي، خطير ومفصلي، لأنه يكشف كيف يمكن للعلم أن يتحوّل، في يد الأيديولوجيا، إلى أداة جريمة.. النازيون لم يُقصوا العلماء بل **جنّدوا الأطباء والباحثين في مشروعهم العنصري**، وجعلوا من الطب «مبرّرًا علميًا» للإبادة.

- لنأخذ الأمر بشكل منظّم وفق وثائقيات عديدة:

أولًا: تحويل الطب إلى أداة أيديولوجية

- الطب في يد النازيين لم يكن إنسانيًا، بل بيولوجيًا-سياسيًا.. ليس شفاء الفرد بل «حماية صحة الأمّة».

«الجسد القومي»... أُعيد تعريف مهمة الطبيب، بما جعل مهمته «الجسد الجماعي للشعب»..

- هذا المعنى قاد إلى ممارسات مروعة باسم «الطب».

ثانيًا: ثلاث أدوات رئيسية لاستخدام الطب في خدمة النازية:

- اليوجينا (تحسين النسل) هدفها «تنظيف» العِرق الآري من أي «شوائب».

- اعتُبر أن بعض الأمراض (الصرع، الفصام، الإعاقة الذهنية) وراثية وتُهدد «نقاء العرق».

- فُرضت عمليات تعقيم قسرية لعشرات آلاف الألمان (خصوصًا الفقراء أو المرضى أو المعاقين).

- في ١٩٣٣ صدر قانون «منع النسل لمن يعانون أمراضًا وراثية» – أول قانون رسمي للإبادة الباردة.

- برنامج القتل الرحيم:

- بدأ سريًا عام ١٩٣٩

- الأطباء هم من قرروا من يستحق الحياة ومن لا.

- الأشخاص ذووا الإعاقة، المعاقون عقليًا، مرضى نفسيون... أُزيلوا من «جسد الأمة» بقتل منظم.

كان يُقال: «هؤلاء عبء على الدولة، حياة لاتستحق أن تُعاش».

- جرى قتل ما لا يقل عن ٧٠ ألف شخص في مصحات وعيادات تحت إشراف طبي.

- التجارب الطبية في معسكرات الاعتقال:

-استُخدِم السجناء – خصوصًا اليهود والغجر – ك«فئران تجارب بشرية».

د. جوزيف منغليه، الطبيب النازي المعروف بـ«ملاك الموت»، أجرى تجارب على التوائم، تشويه الأعضاء، تجارب التجمد، حقن العيون، نقل أعضاء من دون تخدير.

- تمت تجارب على تأثير السموم، مدى تحمّل الجسد للألم، تعقيم النساء قسرًا.

ثالثًا: كيف برّر الأطباء ذلك؟

- وُظّف خطاب «البيولوجيا الاجتماعية»: ما يُفيد المجتمع أهم من حياة الفرد.

- الإبادة قُدّمت كنوع من «التدخل العلاجي» على مستوى الأمة.

- ظهرت مفاهيم مثل: الحياة غير المنتجة. الإنسان الطفيلي. تكلفة حياة المعاق تساوي تكلفة تعليم عشر أطفال آريين أصحاء.

رابعًا: دعم الجامعات والمعاهد الطبية

- جامعات مثل جامعة هايدلبرغ وميونيخ شاركت في تعزيز «العلوم العرقية».

- أُنشئت معاهد لدراسة «الصفات البيولوجية للشعوب».

ظهرت فروع مثل: «الطب العرقي» و«الأنثروبولوجيا التطبيقية» بهدف تصنيف الناس وتحديد من يستحق الحياة.

خامسًا: بعد الحرب – محاكمات نورمبرغ الطبية:

بعد سقوط النازية، أُجريت محاكمات خاصة للأطباء، «محاكمة الأطباء» كشفت حجم الجرائم التي تمت تحت راية «العلم».

على أعقاب هذه المحكمة، كانت «اتفاقية نورمبرغ»، التي وضعت أساساً لأخلاقيات الطب الحديثة.

بالنتيجة:

الطب النازي لم يكن طبًا لإنقاذ الحياة، بل طبًا لفرز الحياة.

كيف استجابت الجماهير؟

كيف صمت الأطباء العاديون؟

- لنقسّم الإجابة بدقة، مع ربطها بالسياق النفسي والاجتماعي والسياسي.

أولاً: استجابة الجماهير:

١. الطاعة للسلطة

المواطن الألماني العادي لم يكن بالضرورة يؤمن بالإبادة، لكنه تعلّم الطاعة العمياء من نظام قائم على الانضباط، العقوبة، والانتماء القومي.

ثمة تجارب حدثت ما بعد سقوط النازية، أظهرت أن معظم الناس على استعداد لإيذاء آخرين عندما تأتي الأوامر من «سلطة شرعية».

٢. الخوف والتواطؤ

- أي اعتراض علني على النازية كان يُقابل بالاعتقال أو القتل.

كثير من الناس اختاروا الصمت، وهو في سياق كهذا شكل من أشكال التواطؤ: «إذا لم تكن الضحية أنا، فلتكن غيري».

٣. الاستفادة من سياسات التهجير والمصادرة

- عند ترحيل اليهود من أحيائهم، كانت الجماهير تدخل البيوت وتأخذ الأثاث والأواني وحتى الكتب.

- بعض الألمان شعروا بأن «الدولة تُكافئهم» على الولاء.

٤. قوة التكرار والدعاية

عقود من الدعاية جعلت من كراهية اليهود «حقيقة عامة»، بل وأمرًا يوميًا في الإعلام والمدرسة والعمل، حتى أن كثير من الناس صدّقوا أن الإبادة كانت «ضرورة دفاعية».

٥. الإنكار المتعمَّد

لم يكن كل شيء سرًا.. رائحة المحارق كانت تُشمّ، والقطارات تُرى، ومع ذلك تواطأت الجماهير بقولها: **«لانعرف»**، أو **«لا نريد أن نعرف»**، والدافع هو الحفاظ على الراحة الشخصية مقابل تجنّب الحقيقة المرعبة، ما يعني **«العمى الإرادي»**.

- بعض الأطباء كانوا يعيدون توصيف الجرائم:

أو «ليس قتلاً بل تخفيف معاناة».»ليس تعذيبًا بل تجربة طبية ستنقذ ألمانًا لاحقًا»

٦. قلة نادرة قاومت

هناك حالات نادرة لأطباء رفضوا، لكنهم قُمعوا فورًا، ربما أشهرهم د. كارل بونهوفر، شقيق عالم اللاهوت ديتريش بونهوفر، قاوم واعتقل حسب وثائقي تناول حياته.

- من هو بونهوفر هذا؟

وفق سيرته:

- لم يكن **«بطلاً استعراضياً، بل طبيبًا قاوم بصمت ومهنيّة»**.

- اسمه ارتبط لاحقًا بأخلاقيات الطب، وذُكر في دراسات ما بعد الحرب حول «الطب في زمن الجريمة»، ساعد في ابراز فكرة:

- «الطبيب ليس أداة للسلطة، بل حارس للضعفاء».

بالنتيجة:

- ليس كل من شارك كان متوحشًا، لكن الوحشية حدثت.. و«الجمهور القاتل» تحقق.

السؤال:

- تلك وقائع العمارة النازية، كيف يصنع التطرف الإسلامي عمارته؟

في صلب فهم آليات «صناعة الجمهور القاتل» لدى الفصائل الراديكالية الإسلامية، هو أن هؤلاء لا يكتفون باستخدام العنف، بل يعملون على **تأصيل العنف نفسيًا وفكريًا** في وعي جماعي، ليكون القتل «واجبًا»، والكراهية «فضيلة»، والآخر «نجسًا» أو «عدوًا لله»، وهنا محاولة لتفكيك هذا «التأصيل».

حين تصبح الكراهية فضيلة:

في أدبيات التنظيمات الإسلامية الراديكالية، لا تُطرح الكراهية كـ «عار»، بل كواجب ديني «الولاء والبراء»، يتحوّل من مفهوم عقدي إلى جهاز أيديولوجي يعمل على نفي الآخر وقتله رمزيًا أولاً، ثم جسديًا لاحقًا.. الكراهية ليست حالة عاطفية عابرة، بل مشروع تربوي متكامل.

هنا سيبرز السؤال:

ماهي ماهية البنية التربوية التي تُنتج **«الجمهور القاتل»**؟ كيف تُصاغ نفسية الكادر والمُجند والمرأة والطفل، ليصبحوا أدوات في ماكينة العنف في آلة التطرف الإسلامي؟

أولًا: الهرم الأيديولوجي لصناعة الكراهية:

١. الثنائيات الكبرى. عالمان لا يلتقيان

- دار الإسلام / دار الكفر
- المجاهد / المرتد
- النقاء / النجاسة
- الشهادة / الخيانة

من خلال هذه الثنائيات، يُعاد تشكيل الوعي ليعمل على قاعدة «نحن/هم»، حيث يُصبح وجود الآخر تهديدًا دائمًا، وحذفه هو الطريق إلى النجاة.

٢. الشيطنة: تحويل الآخر إلى مسخ

تعمل الدعاية الراديكالية الإسلامية، على نزع الصفات الإنسانية عن المختلف، بدءًا من اللغة (الكافر، العلج، المرتد، الخنزير...الخ)، وانتهاءً بالصور التي تُظهره كمغتصب أو قاتل أو متآمر.

٣. الحق الإلهي في القتل

حين يُربط العنف بمشيئة الله، يتحول القاتل إلى منفّذ لقدر مقدّس، وتُصبح الجريمة طاعة، ويُحوَّل الموت إلى عبادة.

ثانيًا: البرامج التربوية الداخلية.

١. تأهيل الكوادر العقائدية:

يتم فيها تلقين المتدربين كتبًا مختارة تؤسس لفكرة «الطائفة المنصورة»، مع تمجيد القتال وشيطنة الخصم.

من كتبهم الأكثر تداولاً: العقيدة الواسطية، الكواشف الجلية، الولاء والبراء لمحمد القحطاني، معالم في الطريق لسيد قطب، وكتابات بهذا الاتجاه، وقد يكون كتاب «الولاء والبراء» هو الأقرب إلى أذهانهم فهو يدعو إلى أن يكون الحب والبغض، والموالاة والمعاداة، قائمة على أساس العقيدة فقط، أي أن المسلم يجب أن يوالي المسلمين ويعادي الكفار والمخالفين للعقيدة، بغض النظر عن أي اعتبارات أخرى كالجنسية أو الإنسانية أو المصلحة.

الكتاب يستخدم نصوصًا من القرآن والسنّة وآثار السلف ليؤسس لمفهوم يرى أن أي علاقة ودّ أو تعاون أو تشبّه أو انفتاح على غير المسلمين أو المخالفين في العقيدة هو نقص في التوحيد، وقد يكون ناقضًا له في بعض الحالات.

٢. برمجة النساء.. الجهاد غير المسلح:

- مدارس شرعية للنساء تركز على مفاهيم مثل الطهارة العقائدية، النكاح في سبيل الله، التبرّؤ من الفاسقات.

- تأطير النساء في وحدات مسؤولة عن الدعم اللوجستي، صناعة المحتوى، وربما تجنيد الأخريات.

وقد يكون «جهاد النكاح» من المفاهيم التي كرّستها هذه التنظيمات، وهو مصطلح شاع إعلاميًا بعد الثورة السورية، ويُقصد به إرسال فتيات لممارسة «النكاح المؤقت» مع المقاتلين «لدعمهم نفسياً»، وقد نُسب هذا المصطلح ظلماً أو صدقًا (بحسب المصادر) إلى فتاوى خرجت من بيئات متشددة، وغالبًا ما تم توظيفه في **البروباغندا السياسية**، من دون وجود فقه حقيقي يدعمه.

في تنظيم داعش والقاعدة وفروعهما، تم تبرير الزواج من «السبايا» أو «المهاجرات» باعتباره **نوعًا من الجهاد أو الإعانة على الجهاد**، وظهر في أدبياتهم بأن الزواج من المرأة المؤمنة في **«أرض الجهاد»** يُعد **«نكاحًا في سبيل الله»**، لأنه يعين المجاهد ويضمن التكاثر في أرض الخلافة.

٣. تكوين الطفل القاتل.. التربية على الموت:

- تحوي دروسًا في التوحيد الصافي، الجهاد، «الولاء والبراء»، وتُقصى منها العلوم الحديثة.

(تدريبات عسكرية مبكرة).. ألعاب قتالية، حفظ الأناشيد الجهادية، تعلّم الذبح أو تفخيخ الدمى

- **إنتاج أفلام بطولية** يظهر فيها الأطفال وهم ينفذون عمليات قتل رمزية، فيتحول الدم إلى لعبة.

ثالثًا: تقنيات الخطاب التربوي:

(الاجتزاء النصي)..استحضار آيات وأحاديث دون سياقاتها، وتفسيرها في ضوء الحرب الدائمة

- التركيز على صور الضحايا المسلمين، مع تجاهل سياق الصراع، لإثارة الغضب والغريزة الانتقامية.

- صناعة سرديات عن أطفال استُشهدوا، نساء فجرن أنفسهن، ومجاهدين عادوا من الموت (**تدوير القصص البطولية**).

رابعًا: من التعصب إلى العنف:

التنظيمات الراديكالية لا تكتفي بتوليد الكراهية، بل تدفع بها إلى أن تكون «محرّك فعل».. يُنقل الأفراد من حالة المشاعر إلى حالة الحركة «**إكره إذا اقتل**».

«**الجمهور القاتل**» هنا لا يُخلق في ميدان المعركة فقط، بل يُربّى في الحلقات التربوية، والمدارس البديلة، ومنشورات التلغرام، ودموع الخطباء، وألعاب الأطفال.. إننا إزاء مشروع طويل المدى، لا لحكم العالم، بل **لإعادة تعريف الإنسان باعتباره مقاتلًا أبديًا**.

وهنا .. بهذه الحجارة تُبنى «القلعة».

هانحن ثانية نعود إلى «القلعة» ومعنا المزيد من الأسئلة، أولها:

كيف حدث ذلك؟ ما هي آلياته؟ أطباء يتحوّلون في «**القلعة**» إلى «**قطيع**»، هل ثمة نصوص أدبية روائية أو سواها تعالج ذلك؟

هل ثمة نصوص أدبية تعالج انسحاق الفردانية، وتحويل الأفراد إلى كتلة قطيع؟ إلى «جمهور قاتل»؟

- كيف يتحول الإنسان إلى كائن قطيعي؟

- كيف يُنزَع من الإنسان فرديته ويُذوَّب في جماعة مطيعة؟

. لقد طُرح هذا السؤال في الفكر، والسياسة، والنفس، والأدب، كلٌّ من زاويته، لكنه يظل سؤالًا واحدًا:

- **كيف يُصنع القطيع؟** دعونا نتتبع ذلك عبر مسارات متشابكة.

- **هناك نصوص أدبية وروائية مهمة جدًا عالجت هذا التحول، من بينها:**

- **جورج أورويل «١٩٨٤»**.. تحوُّل الأفراد إلى آلات مراقبة وطاعة.. الأخ الأكبر يراك = الفرد مفرَّغ من ذاته، لا يملك حتى ذاكرته.

- لحظة النهاية: البطل يُحب الأخ الأكبر، رغم أنه كان يكرهه... وهذا هو الانكسار التام للفرد.

- **ميلان كونديرا – «الضحك والنسيان» / «كائن لا تحتمل خفته»:**

- يسخر من الطاعة الجماعية، والرقص تحت المطر بتواطؤ جماعي.. الفرد يضيع بين الشيوعية والرغبة في التبسيط.

- **فرانز كافكا – «المحاكمة»:**

- بطل لا يعرف ما تُهمته، ولا مَن يُحاكمه.. البيروقراطية تبتلعه، وهو يفقد ملامحه كفرد.. رمز رهيب لتآكل الذات داخل مؤسسات تُمجّد الكتلة وتخنق الفرد.

- **عبد الرحمن منيف – «مدن الملح»:**

- كيف تتحول المجتمعات من البداوة إلى الطاعة النفطية.. كيف تُبنى الدولة على التبعية، لا على الفرد الحر، «الروائي الذي أثبت لنا أن رمال الربع الخالي -ليست بورًا- خصبة».

- **صنع الله إبراهيم – «اللجنة»:**

- السخرية من السلطة المطلقة، وتحول الإنسان إلى رقم.

ماذا لو كانت هناك شخصية عرفت أنها تُسحَب إلى القطيع... لكنها قررت أن تحارب لا بالثورة، بل **«بالحفاظ على فرديتها»**؟

- قد تُكتب من داخل معسكر، أو من قلب تنظيم شمولي، أو حتى من بيت عادي... لكنها **تقاوم بأن تظل إنسانًا**.

هل نتوقف عند **فرانز كافكا** ونذهب مباشرة إلى عمق السؤال؟

- كيف يُسحق الفرد من دون أن يلمس أحد جسده؟ كيف يُمحى الإنسان وهو واقف؟

«كافكا» لم يكن مفكرًا سياسيًا، ولا واعظًا، بل كاتبًا مسكونًا باللاجدوى، وبأهوال البيروقراطية التي تفتك بالإنسان **لا بالقوة، بل بالتجاهل.**

«كافكا» لا يصور السلطة ككيان واضح ومباشر، بل كقوة خفية معقدة، نظام بيروقراطي ضخم، يحكم حياة الأفراد بطرق لا تُفهم بسهولة، ففي «القلعة»، تجسّد هذه السلطة نفسها، التي هي رمز للسلطة المركزية، ولكنها غير مرئية بالكامل وغير قابلة للوصول.

. الجمهور القاتل:

في جوف «القلعة» يسكن **«الجمهور القاتل»**؛ ذلك الحشد غير المرئي الذي لا يتحرك ككيان واعٍ أو مقاوم، بل يعمل كداعم خفي للسلطة الغامضة، التي لا تظهر بشكل مباشر لكنها تظل مسيطرة عبر طقوسها وأجهزتها.

إن أردنا أن تستلهم من «كافكا»، نختزله بما يلي:

- رجل يتلقّى استدعاء من جهة مجهولة، لا يُقال له لماذا، يُطلب منه فقط أن يظهر «كإنسان صالح»، وشيئًا فشيئًا، يبدأ بتعديل سلوكه، مظهره، أفكاره.

وفي النهاية، لا أحد يأتي، لكنه لم يعد هو.

شهود الظل. السكرتيرة التي كتبت للشيطان:

في زاوية نائية من دار رعاية للمسنين في سالزبورغ، جلست «إلبزابيت كالرهامر» في عزلتها الطوعية، تشرب الشاي ببطء، وتحدق في فراغٍ مكتظٍ بالذكريات.. امرأة عبرت قرنًا من الزمن، حاملةً في ذاكرتها مشاهد لم تكن يومًا مشاهد معارك أو مذابح، بل كانت صورًا أكثر رعبًا:

- صور الهدوء الذي سبق، ورافق، وتواطأ مع الجريمة.

لم تكن إلبزابيت ضابطة في الـجوستابو، كانت مهنتها أن تكتب، تنسق، ترتب الأوراق، وتبتسم حين يمرر «الفوهرر» راحة يده على كتفها «.

لم تكن من حراس «اوشفيتز»، ولم تكن يدها قد تلطخت بالدم، بل كانت فقط، **«توقّع أوامر الإبادة»**.

قالت: «لم أكن نازية، كنت فقط أبحث عن وظيفة».

قالتها، وكأنها تُبرر... لكنها في العمق، كانت تحاكم نفسها.

هنا تبدأ حكاية الجمهور القاتل، ففي كل دكتاتور يسكن الطغيان، يسكنه أيضًا «جمهور».. لا يقوم الشيطان وحده بأعماله، هناك دائمًا مَن يُمهّد له الطريق، ومَن ينفّذ، ومَن يصفّق، ومَن يضحك، لكن هناك طبقة أكثر خطورة: **أولئك الذين يصمتون.. شهود الظل**.

هؤلاء لا يُمسكون السلاح، لا يُصدرون الأوامر، ولا يُلقون الخُطب، بل يكتبونها، ينسخونها، يسهرون على إخراجها بلا أخطاء.

ما كانت إلبزابيت شاهدة عابرة، بل كانت جزءًا من هندسة التواطؤ الجماعي، تلك الهندسة التي يصعب فضحها لأنها بلا صوت، بلا شعار، بلا دمٍ على اليدين، لكنها تترك الدم يسيل خلف الأبواب المغلقة.

في سنواتها الأخيرة، حين اقترب ظلّ الموت، اعترفت إلبزابيت بشيءٍ يشبه الحقيقة:

- لم أقتل أحدًا، لكنني كنت هناك، عندما كان الشيطان يكتب مذكراته... وكنت أكتبها له.

- هل كانت إلبزابيت ضحية خداع؟

- ربما.

لكن الأرجح أنها كانت ضحية آلية أوسع، **آلية «الجمهور» الذي يفضل الراحة على الشك**، والوظيفة على الرفض، والضحكة الجافة على الصمت الثقيل، ولو كان الصمت طريق النجاة من الجريمة.

لقد حاول كثيرون تفسير كيف تمكّن «هتلر» من التحول إلى معشوق الجماهير الألمانية؟

- كيف استطاع رجلٌ يصرخ، بل لا يتوقف عن الصراخ، أن يسحر أمةً هي مهد الفلسفة؟

.كيف استطاع أن يجمع حوله «**شهود الظل**»، ويمنحهم راحة الضمير، بل والاعتقاد أنهم يؤدون واجبًا وظيفيًا بريئًا؟

- ألم تكن هذه الأمة قد أنجبت ماركس، وفرويد، وآينشتاين؟

- ألم تكن المانيا حفيدة كانط وهيغل ونيتشه؟

لكن الثقافة، مهما علت، لاتحصّن النفس من الخوف، ولا تمنع الإنسان من اختيار القاتل حين يخاف من أن يُقتل، ولا تمنعه من تبرير الكارثة حين تكون وسيلته للنجاة هو أن لا يرى.

في نصّها الصامت، إلبزابيت لاتبحث عن مغفرة، بل عن وصف دقيق لوضعية إنسان يُدرك متأخرًا أنه ساهم في الجريمة، لا لأنه أراد، بل لأنه لم يعترف.

- هذا هو «الجمهور القاتل» في أقصى تجلياته:

- ليس من يصفق فقط، بل من يقبل أن يرى العالم يُحرق بينما يُسلّم أوراق الطابعة، ويشرب قهوته بصمت.

تقول إلبزابيت: «كنت هناك»

-وهي تعلم أن هذه العبارة وحدها كافية لتدين قرنًا كاملًا.

-وها أنذا أعيد السؤال:

كيف لأمة أنجبت رموزًا للعقل والفكر النقدي والتحرّر، أن تسلّم نفسها طواعيةً لديكتاتور؟

- إنه السؤال الأكثر تعقيداً في التاريخ؟ (تاريخي على الأقل إذا كان لي تاريخ).

سأمضي في الإجابة، ضمن أربعة محاور مترابطة، ما يستدعي الإضاءة على تاريخ الفكر الألماني المعاصر.

١. المانيا «الفيلسوفة»:

الفلسفة الألمانية، منذ القرن الثامن عشر، شكّلت منعطفًا جذريًا في الفكر الغربي، ويمكن تلخيص ملامحها الأبرز في:

- من كانط إلى هيغل، الفلاسفة الألمان سعوا لبناء أنظمة فكرية تفسر الوجود والوعي والأخلاق والدولة بشكل شامل ومتماسك.

- هيغل بنى جدله على صراع التناقضات للوصول إلى الحقيقة، وهي المنهجية التي أثّرت في ماركس لاحقًا.

- شوبنهاور ونيتشه، ولاحقًا هايدغر، حيث برز سؤال «الوجود» و«المعنى» وسط العبث والمعاناة.

- من «نقد العقل المحض» عند كانط، إلى «نقد الاقتصاد السياسي» عند ماركس، وحتى «نقد الحداثة» عند مدرسة فرانكفورت.

إنها فلسفة **لا تقبل بالسطح، ولا ترضى بالجاهز، وتسائل كل مسلّمة.**

- هي ألمانيا التي أنجبت للعالم والفكر البشري الثالوث: كارل ماركس، سيغموند فرويد، والبيرت آينشتاين:

الأول كارل ماركس، وهو من رأى أن الصراع الطبقي محرك التاريخ، وهو من حلل بنية المجتمع وارتباط المجتمع بالبنية الفوقية (الدين، الأخلاق، القانون).

الثاني سيغموند فرويد وهو مؤسس التحليل النفسي، والكاشف عن اللاوعي كمحرك للسلوك الإنساني.

أما الثالث فهو البرت آينشتاين، وهو الرجل الذي قلب مفاهيم الفيزياء الكلاسيكية، وبيّن أن الزمن والمكان ليسا مطلقين، بل نسبيين.. آينشتاين الذي مازال الأطباء المعاصرون يتساءلون بدهشة طفل أمام المعجزة:

- يا الله .. ماهذا الدماغ؟

ثالوث هو باختصار، ثلاث ثورات:

- الثورة على الظلم (ماركس)، الثورة على وهم السيطرة النفسية (فرويد)، والثورة على الثوابت الفيزيائية (أينشتاين).

فيما كان «هتلر»، مجرّد الرجل الهشّ في باطنه، الكاريزما المريضة التي تسلّحت بالخطابة والحقد الدفين، والطفل المجروح بكرامته.. هتلر هذا أنتج **«الكراهية المقدّسة»** وزرعها بالملايين، حتى بات كتابه المبتذل **«كفاحي»** يعامل ككتاب مقدّس يُهدى للمتزوجين حديثاً باعتباره كلاماً من «الرب»؟

- ثمة إجابة تستدعي الكثير من التأمل، كان قد حملها لنا أريك فروم:

- الخوف من الحرية، يجعل الجماهير تبحث عن مَنْ يقودها ويمنحها الأمان، ولكن هل منحهم «هتلر» الأمان؟

هتلر لم يمنح الألمان ألمانيا، بل صادرها باسم وهم الأمة النقية.. منحهم شعورًا زائفًا بالأمان والقوة، مقابل طاعتهم العمياء وتنازلهم عن ذواتهم الحرة.. أعاد إليهم الكبرياء في البداية، ليقودهم إلى العار والخراب في النهاية.. كان مشروعه وعدًا بالخلاص، لكنه لم يكن إلا قفصًا مذهّبًا سرعان ما تحوّل إلى محرقة.

سأحدثكم عن بلدي:

يحق لنا بعد هذا العودة إلى «الشرق التعيس»، بل إلى التجربة المريرة والزمن المرير والمآلات المريرة التي شهدتها سوريا (وهي بلدي)، بدءاً باستيلاء حافظ الأسد على السلطة في البلاد ومن ثم توريثها لابنه، ومن بعده (وقد سقط الابن) عادت ملكيتها للقوّة الأكثر ظلامية في عالم اليوم.. «جبهة النصرة»، الابن الشرعي لتنظيم «القاعدة».. السؤال:

- من هؤلاء؟

بين هتلر وحافظ الأسد.. حين يُمسخ الوطن على صورة الزعيم:

في صلب هذا البحث، حيث نتتبع أثر «الجمهور القاتل»، لا يمكن المرور على ظاهرة **هتلر** دون التوقف عند فراغه الروحي والفلسفي.. عند ذلك الطفل المهان الذي لم تُشفَ جروحه، فحمل أحقاده إلى الأمة، وألقى بها في وجه العالم.. لقد كان هتلر تجسيدًا لما يمكن أن يفعله الخواء حين يلتقي بالذل، وحين تتحوّل عقدة النقص إلى مشروع دولة، **وحين يتواطأ الجمهور مع المُذلّ ليصير شريكًا في الجريمة.**

لكن التجربة الهتلرية، بكل ما فيها من رعب، وُلدت في أرض أنجبت الفلسفة: ألمانيا، وطن نيتشه وكانط وهيغل، بلد العلم والتحليل النفسي، حيث عاش فرويد وماركس وآينشتاين في أجواء لم تكن تخلو من سؤال الحقيقة والجوهر والوجود، **ووسط هذا الإرث الثقيل، نشأ الوحش،** وكان ذلك مفجعًا ومُربكًا:

- كيف تنهض البربرية في قلب الحضارة؟

ومن هذا المفجع، ننتقل إلى ما هو مأساوي في شكل آخر:

- التجربة السورية مع حافظ الأسد.

هنا، لا نجد ألمانيا الفلسفية ولا برلين العقل النقدي، بل أرضًا لم تُنتج فلسفة تُذكر، ولا سؤالاً جوهريًا عن المعنى أو المصير.. سوريا، التي كانت دومًا ساحة لا ذاتًا، ممرًا لا مركزًا، تحوّلت في عهد الأسد الأب إلى شيء يشبه جثة محفوظة في الكلوروفورم، ممسوخة على صورة رجل واحد، صار هو التاريخ، والجغرافيا، والمستقبل، والموت.

الفرق بين **هتلر وحافظ** ليس فقط في طبيعة النهاية، بل في طبيعة البداية.. هتلر جاء من عمق جرح جماعي بعد هزيمة مذلة لألمانيا الحرب العالمية الأولى، ، فيما جاء الأسد من رحم نظام عسكري ، استولى على الدولة عبر انقلاب، **ليبدأ مشروعه في مسخ الوطن وإعادة تشكيله عبر هندسة الخوف،** وتفكيك المجتمع إلى وحدات خانعة.

وهنا، نبحث لا في الزعيم فقط، بل في **الفراغ الجمعي**، في الحاجة النفسية العميقة التي تدفع شعبًا بأكمله إلى تأليه من يسحقه، إلى الدفاع عن سجّانه، وإلى القتال لأجل كرامة مزيفة.

من هتلر إلى الأسد، ومن ألمانيا إلى سوريا، نعبر لا فقط الزمن والخرائط، بل نعبر إلى باطن الشعوب، حيث تولد الوحوش، لا من قسوة الزعيم وحده، بل من قسوة **الفراغ** أيضاً.

في دراسة التحولات العميقة التي شهدتها سوريا خلال العقود الخمسة الماضية، يصعب تجاوز العامل السيكولوجي في تفسير ظاهرة الأسد – الأب والابن – ليس كأفراد فقط، بل كرمزين لتحوّل دولة إلى صورة نفسية لزعيم، وتحوّل مجتمع إلى «صورة الزعيم».

حافظ الأسد.. من الجبل إلى القصر:

ولد حافظ الأسد في القرداحة، في مجتمع علوي هامشي، فقير، متوجّس، يحمل في ذاكرته الجماعية قرونًا من الإقصاء الطائفي، هذا النشوء في بيئة خائفة ومهمّشة كان البذرة الأولى لتكوّن **شخصية تعتمد الحذر، الكتمان، والارتياب**.

لم يكن الأسد رجل أفكار، بل رجل تكتيك، استخدم الأيديولوجيا البعثية كأداة، لا كعقيدة.. الرفاق في الحزب كانوا وقودًا في مشروعه، لا شركاء، وفي العمق، كانت نفسيته ترى في الدولة وسيلة للسيطرة لا للتنمية، ولجم للمجتمع لا لتحريره.

يصفه لي أحد الصحفيين الذي كان لصيقاً به بـ «بارد المشاعر، ميّال للعزلة، مهووس بالسيطرة، لا يضحك، لا ينفعل علنًا، يستخدم الصمت سلاحًا، يقيس الخطوة مرتين قبل أن يخطو، يمتلك عقلاً حسابياً لاعاطفياً، يرى في البشر أدوات أو تهديدات، بنى دولته كما يبني عسكري متحصن خندقه.. من يعارضه يُمحى، القمع عنده هو قمع وحشي يستعمل بصفته رسالة تربوية».

ما فعله الأسد لم يكن مجرد حكم مطلق، بل **إعادة تشكيل نفسية جماعية**، لتغدو سوريا، ببطئ وتدريج، صورة له:

- صامتة، مرتابة، مذعنة.

سوريا قبله.. وطنٌ يتلمّس طريقه:

ما قبل الأسد لم تكن سوريا مثالية، لكنها كانت وطنًا يبحث عن ذاته، بعد الاستقلال عام ١٩٤٦، وُجد برلمان منتخب، حياة حزبية تعددية، نخبة ثقافية نشطة، واقتصاد حر رغم هشاشته.

- المدن الكبرى – دمشق، حلب – كانت نابضة بنقاش سياسي، بنشاط ثقافي، بحيوية اقتصادية.

لكن الانقلابات العسكرية، بدءًا من ١٩٤٩، أدخلت الجيش إلى السياسة، ومع دخول البعث في ١٩٦٣، بدأت السلطة تنزلق تدريجيًا إلى يد من يرى في الأيديولوجيا غطاءً للحكم المطلق.

كيف صبغ الأسد سوريا بلونه؟

عبر انقلاب ١٩٧٠، أقصى رفاقه، وبدأ مشروع إعادة تشكيل الدولة.. الخطوات كانت دقيقة، متتابعة، مخطط لها:

- أفرغ السياسة من السياسة.

- حوّل الأحزاب إلى واجهات فارغة.

- ألغى المبادرة الفردية، وأسس لنظام الطاعة.

- خلق جهازًا دعائيًا يُعيد قولبته كرمز للأبد.

النتيجة: سوريا لم تعد وطنًا يعيش فيه بشر أحرار، بل ساحة يتحرك فيها الخوف، يُراقب فيها الكلام، وتُسحق فيها المعارضة بيد فولاذية.

بشار الأسد.. قشرة ناعمة على لب قمعي:

حين مات حافظ الأسد عام ٢٠٠٠، كان ابنه بشار لا يزال غير مهيأ بالكامل، جاء إلى السلطة بهيئة الطبيب، الشاب، المتعلم، المتأثر بالغرب.. بدا في بدايته وكأنه «وجها إصلاحيًا»، لكن الحقيقة سرعان ما تبيّنت.

لم يكن صورة طبق الأصل عن أبيه، لكنه نسخة مهذبة ظاهريًا، تحتفظ بالجوهر الأمني ذاته:

- شخصية **باطنية انطوائية**، ميّالة للتبرير، عاجزة عن الاعتراف بالخطأ.

- لا يمتلك كاريزما والده، لكنه يحتمي بسلطة المؤسسة الأمنية.

- **مزيج من النرجسية والدونية**، يجعله يتصرّف بحقد مبطّن تجاه كل من يتحدّاه.

عندما اندلعت الثورة السورية عام ٢٠١١، ظهر وجهه الحقيقي:

- **قشرة الطبيب سقطت.**

- **القمع صار مباشرًا، داميًا، شاملًا.**

- **لا خطوط حمراء.. براميل، كيماوي، حصار، تجويع.**

وإذا كان حافظ الأب قد صنع «جمهورية الخوف»، فإن بشار الإبن ورثها ثم عمّقها، مضيفًا عليها طبقة من الكذب المعولم والتذاكي الإعلامي.

في شخصية الأسد الأب والابن، نقرأ قصة **التحوّل من الهامش إلى المركز، من الخوف إلى خلق الخوف، من الريف المهمّش إلى الدولة الأمنية.**

- سوريا في عهدهما لم تكن وطنًا يُبنى، بل دولة تُختزل في رجل.

وفي النهاية، الرجل يزول، لكن الخوف الذي زرعه، يحتاج لأجيال كي يُقتلع، ولكن السؤال سيبقى:

- كيف لمثل هذين أن يعثرا على جمهور يقدّسهما؟ **كيف لهما بهذا «الجمهور القاتل»؟**

الجمهور القاتل – الطاغية بتصرف الجمهور:

في النظم الدكتاتورية، لا يكفي أن يكون الطاغية متغوّلًا حتى تكتمل آلة الاستبداد، هناك طرفٌ آخر، غالبًا ما يُغفل لكنه أساسي:

- الجمهور الذي لا يصفّق فقط، بل يقتل باسمه.

في الحالة السورية، وتحديدًا في عهد حافظ الأسد ومن بعده بشار الأسد، ظهر هذا الجمهور بكل تجلياته المرعبة: جمهور لا يُذعن فحسب، بل يتماهى، ويتحوّل إلى أداة عنف، تحت مسمّى الوطنية أو الولاء، ومن بين هذا «الجمهور»، أولئك الجلادين في السجون السورية، في سجن صيدنايا وفي أقبية التعذيب والفروع الأمنية، فحكايات سجن صيدنايا، ليست حكاية «أوامر» تصدر و«عناصر» تنفّذ، بل هي حكاية **كائنات فقدت إنسانيتها واكتسبت نشوة من التعذيب..** الجلاد هناك لا يضرب لأنه مأمور، بل لأنه **يريد**، لأنه **يستلذ** في أن يرى الضحية تتلوّى، أن يسمع العظم وهو يُكسر.. في سجن صيدنايا، لم يكن الضرب وسيلة للانتزاع أو الإذلال فقط، بل صار **طقسًا يوميًا للسيطرة والتلذذ..** كان الجلادون يتناوبون على سجنٍ بلا ضوء، ولا صوت، سوى أصوات الأنين، ويتعاملون مع الجسد الإنساني كأنه حقل تجارب لخيال مريض.. هؤلاء ليسوا «أدوات»، بل هم جمهور قاتل من طينة أخرى، جمهور عرفَ الوحش داخله، **فأطلقه بلا ندم ولا رحمة**.

في قلب البحث عن «الجمهور القاتل»، تقف سيرة الطبيب السوري **علاء موسى** بوصفها مثالاً بالغ الدلالة على تحوّل الأفراد، حتى أولئك المنتمين إلى المهن التي تقوم على العناية بالحياة، إلى أدوات للقتل المؤسسي حين يخرطون في ماكينة العنف السلطوي.. **موسى**، الذي حوكم في ألمانيا عام ٢٠٢٥ بتهم تتعلق بتعذيب وقتل معتقلين سياسيين في مستشفيات تابعة لنظام الأسد الابن، جسّد كيف يمكن أن يتحوّل الطب إلى ذريعة للتنكيل، وكيف يُسخّر الجسد البشري كمسرح لتفريغ السلطة لقسوتها، لا عبر أدوات العسكر، بل من خلال مشرط الطبيب وسُمّ المُحقِن.. تتقاطع

جرائمه مع ما ارتكبه «طبيب الموت» النازي، لا من حيث حجم الضحايا فحسب، بل من حيث منطق الجريمة ذاتها: «**احتقار الجسد باسم عالمٍ تم تدجينه وتحويله إلى ذراع أيديولوجي**».

لكن الفرق الجوهري أن **الطبيب النازي**، كان جزءًا من منظومة نازية ذات فلسفة واضحة في تصنيف البشر، فيما مارس **موسى** عنفه في فراغ أيديولوجي، مستندًا فقط إلى منطق الطاعة والامتثال في دولةٍ حكمها الفرد المطلق.. هنا، يغدو الطبيب قاتلًا لا لأنه يؤمن بما يفعل، بل لأنه تماهى مع بنية سلطوية أفرغت الطب من معناه الأخلاقي، وحوّلت الجمهور من ضحايا إلى متواطئين بالصمت أو الرعب.. هنه المفارقة تفتح بابًا لتأمل «**الجمهور القاتل**» لاككتلة صاخبة فقط، بل كشبكة ممتدة من الامتثال والسكوت والتأقلم مع الإجرام بوصفه «أمرًا طبيعيًا».

حال كهذا يستدعينا ثانية لنسأل:

- من هو «الجمهور القاتل»؟

هو الجمهور الذي لا يكتفي بالطاعة، بل يتماهى مع الطاغية، ويشارك في تنفيذ العنف باسمه، دون شعور بالندم، هو جمهور يرى في القتل تطهيرًا، وفي الطاغية خلاصًا، وهو ليس فردًا شاذًا، بل حالة جماعية يمكن برمجتها، تشكيلها، تفعيلها.

حافظ الأسد ومن بعده بشار، شخصيتان محكومتان بما يمكن تسميته بـ «النرجسية العدوانية»، لكن النرجسي لا يكتفي بإعجاب داخلي، بل يحتاج إلى جمهور يُغذّيه، جمهور يُصفّق له، يُكرّس صورته، يذود عنه، ومن هنا بدأ تصنيع «الجمهور القاتل»، ومعه يتجدد السؤال الذي لن أملّ من ترداده:

- لماذا يقدّس الناس طاغية كهذا؟ ما دوافعهم؟

- في بيئة الخوف المزمن، يتطور لدى البعض تعاطف مع الجلاد، بحثًا عن أمان، يبدأ الطاغية بأن يُرى كأب، كحامٍ، كرمز للاستقرار.

- في فراغ المؤسسات وتفكك الروابط، يتشبث الناس بمن يظهر كمنقذ، حتى لو كان قاسيًا.

- يرى بعض الجمهور في الزعيم تجسيدًا لرغباته المكبوتة: الانتقام، السيطرة، سحق المختلفين.

لكن «الجمهور القاتل» ليس صنفًا واحدًا، بل أطيافًا:

- المؤمن الحقيقي، الانتهازي، المرعوب، المُحبَط الذي لم يجد بديلًا.

النظام مبرراً لبقائه، لهويته، بل للزمن الذي ارتبط به. كل فرد منهم كان يرى في بقاء.

الطاغية كإله، والجمهور كجوقة عبادة:

تشترك سوريا الأسد مع كوريا الشمالية في بناء جمهور قاتل، رغم اختلاف السياقات الثقافية والتاريخية، ففي **كوريا الشمالية، تحوّلت الدولة إلى طائفة**، والزعيم إلى إله.. في سوريا، حافظ الأسد لم يُؤلَّه حرفيًا، لكنّه أصبح كليّ الحضور، كليّ الصواب، كأن نَفَسه ضمانة لاستمرار البلاد.

حافظ الأسد وكيم إيل سونغ؛ بشار وكيم جونغ أون – امتداد بيولوجي وروحي لسلطة لا تموت، للـ «الزعيم إلى الأبد».

- في البلدين، يُربّى الطفل على صورة الزعيم (وهنه حرفة الإعلام).

- كل نقد هو تهديد للكيان ذاته، فكيان الدولة مرتبط بكيان العائلة، إن أصاب العائلة «زكام»، فلابد أن تسيل سوائل أنف الدولة، **وإن أصيب بالإسهال، فلابد أن تمتلئ أرصفة الدولة بخراء «الأمة»**.

- الزعيم، لا يُسأل، لا يُعترض عليه، بل يمارس العنف ضد المختلفين دفاعًا عن صورة الوطن الملتصقة بالزعيم.

الفارق:

كوريا الشمالية كانت، منذ تأسيسها، مشروع دولة مغلقة تمامًا، أما سوريا،

فقد كانت دولة ناشئة، ذات برلمان وصحافة ونقابات، وبدأت تنغلق تدريجيًا مع الأسد، ما يجعل من تجربتها أكثر مأساوية، لأنها لم تولد كذلك، بل تحوّلت بالقوة.

سوريا خمسينيات القرن الفائت، كانت مرحلة واعدة، ، بروح وطنية تحررية، وانفتاح على التجارب العربية والعالمية.. سياسياً، كانت البلاد تتأرجح بين الديمقراطية البرلمانية والانقلابات العسكرية، لكن مساحة الحرية الصحفية والفكرية بقيت نسبياً واسعة حتى نهاية العقد.. كان هناك تأثير قوي للفكر القومي العربي، واليسار الماركسي، والتيارات الإسلامية الإصلاحية.

قبل أن تأتي العواصف السياسية والانقلابات، عاشت سوريا في الخمسينيات واحدة من أزهى فتراتها الثقافية

دمشق وحلب كانتا تضجان بالصحف، من **الأيام والنصر والشهباء**، إلى المجلات القادمة من بيروت والقاهرة.

مقهى الروضة في شارع العابد، **البرازيلية** في شارع النصر، و**القصر** في حلب... لم تكن مجرد أماكن للقهوة، بل صالونات فكرية مفتوحة، حيث تختلط رائحة البن بصوت النرد، والنقاشات تمتد من قضايا الوحدة العربية إلى أحدث دواوين الشعر.

المكتبات كانت تمتلئ بكتب سارتر وجبران وميخائيل نعيمة، والمسرح يقدّم الحكيم وموليير، والإذاعة السورية تبث فيروز في بداياتها.

كان المثقف السوري آنذاك يعيش بين الصحيفة، والمقهى، والمسرح، وكأن المدينة كلها منصة للحوار.. ذلك الزمن لم يكن مثاليًا، لكنه كان مليئًا بالأسئلة، والأهم... كانت هناك مساحة لطرحها.

ثم جاء البعث، وحمل حافظ الأسد:

أُجبر طلاب المدارس على ترديد شعار: «بالروح بالدم نفديك يا حافظ».. من يرفض، يُعاقب.

في الداخل السوري، لم يكن الصراع فقط بين نظام ومعارضة، بل بين نمطين إنسانيين:

- القاتل الذي عاش في كنف الطاغية وتماهى معه، حتى صار مثله.

- والمقتول الذي تجرّأ أن يرى الحقيقة ويقول «لا».

لم يكن المقتول دومًا معارضًا سياسيًا، أحيانًا كان سوريًا فقط، سوريًا فقيرًا، حُرًا، أو حتى صامتًا.. المشكلة أنه الطاغية لا يطيق الصمت، لأنه لا يُمجّده.

- المقتول كان من يجب أن يُكسر، كي يُعاد تشكيله، أو يُمحى.

القاتل السوري:

هو من مارس القتل لا كواجب فقط، بل كامتياز.. من وجد في العنف هوية، وفي التعذيب مكانة، وفي سحق الآخر نشوة نصر.

- أحيانًا، يكون **القاتل أب للضحية**، وهاكم مشهد أنا شاهد عليه:

كان «عفيف»، وقد اعتقل ولده البكر من مطار دمشق الدولي، يجلس بين رفاقه في السهرة، كأنه حاضر وغائب في آن.. يضحك، يوزّع أوراق الشدة بآلية مَن يعرف كيف يهرب من الحقيقة، ثم فجأة، ينقطع عن اللعب، كأن صوتًا داخليًا استدعاه إلى مكان آخر، مكان لم يغادره يومًا:

- يرتفع صوته بالهتاف لحافظ الأسد: بالروح بالدم نفديك يا حافظ.

يرتجّ صوته بين الغضب والرجاء، كأنما يُنشد خلاصًا، أو يحاول رشوة الهواء ليستعيد ابنه، ثم يبكي، ليس بكاء عاديًا، بل انهدام بطيء لرجل فقد المعنى، وفقد حتى الحق في إعلان فقده.

ما نراه هنا هو **تجلٍّ حيٌّ لصدمة مركّبة**، اختلط فيها الحزن بالقهر، والفقد بالخوف، والرفض بالإذعان، فالرجل لا يمدح الأسد حبًا، بل **يتوسله بقناع المديح**، كأنه يوجه رسائل للجلاد الذي يراقبه حتى وهو في خياله.. المديح هنا ليس موقفًا سياسيًا، بل **فعل بقاء، ميكانيزم نفسي بدائي**، يشبه تمسّك الطفل بذيل قاتله، علّه ينجو بالعاطفة من الذبح.

مع «عفيف»، تنهار الذات بين حقيقتها وما تُرغم عليه، ففي هذا السلوك انفصاماً حاداً بين الشعور والقول، بين ما تُظهره وما تمتثل إليه حيث يُنتج الخوف خطاباً مناقضاً للمشاعر الحقيقية بقصد النجاة، أو إقناع الذات بأن النظام مازال قائماً.

إنه لا يمدح حافظ الأسد، إنه يستدعي شبحه ليفاوضه على مصير ابنه، لكن الأسد، مثل كل الأنظمة المستبدة، لا يسمع سوى صدى صوته.

وهكذا يتحول الأب إلى **نموذج مصغّر للجمهور المُدمَّر نفسيًا**، يتأرجح بين الأمل الوهمي في استعادة شيء من العدالة، وبين الاعتراف الداخلي بأن المديح لن يعيد له ابنه، ولن يُجنّبه الجنون.

هذه اللقطة البسيطة في ظاهرها، تختزل سنوات من العيش تحت سُلطة صنعت من **الخوف دينًا، ومن الطاعة لغة، ومن الفقد طقساً يومياً**، حتى بات الأب يرى في مديح قاتل ابنه وسيلة للشفاء، أو على الأقل وسيلة للانهيار الكامل.. كان يظن أن حافظ يسمعه، هو من همس لي بذلك.

- شبح حافظ يزوره كل ليلة في أحلامه، ليذكّره أنه ما زال في سجنه.

وبالنتيجة:

- سينضم الأب الثاكل، إلى «الجمهور القاتل».

هل للصورة أن تكون أكثر اكتمالاً إذا ما استعنا بتجربة أخرى؟

الخمينية – التقديس كجهاز قمع:

إذا كانت كوريا الشمالية تقدم النموذج المغلق للطغيان الوراثي، فإن إيران الخميني قدمت نموذجًا آخر:

- الثورة التي ابتلعت أبناءها، **وأنتجت طغيانًا باسم المقدس.**

ما يعني تحويل الزعيم إلى مُقدّس.

- كما حافظ الأسد، جرى تقديم الخميني بوصفه معصومًا لا يُنتقد،

. الحرس الثوري يشبه في بنيويته وولائه المطلق الأجهزة السورية، **جمهور جاهز للقتل.**

- **الدين أداة طاعة، لا أداة مساءلة.**

- **أدلجة العنف**، فالقتل يصبح شهادة، والاختلاف يُعاد تعريفه كخيانة.

في المدارس الإيرانية يدرس أن **معارضة المرشد الأعلى تعني الوقوف ضد الله.**

الإمام الخميني.. الزعيم المُقدّس:

الإمام الخميني لم يكن زعيمًا سياسيًا بالمعنى التقليدي، بل ظهر كـ«كائن استثنائي»، صاغ نفسه بوصفه **رجلًا بلا رغبات دنيوية**، يقف في مواجهة طاغوت الشاه، ثم في مواجهة العالم، لكن، خلف هذه الهالة من الزهد، كانت تتشكّل **كاريزما شديدة القوة والتأثير**، تقوم على:

- وجه ساكن، نظرة نصف مطفأة، كلام قليل، لكنه قاطع.

(نقيض فيديا كاسترو على سبيل المثال). . نقيض الزعيم الشعبوي الصاخب؛ صمته أصبح صوتًا

كما لو أنه «**الساموراي الشيعي**». زهد متقشف، لكنه عنيف من حيث القرار والموقف.

في الـ «هارا كيري»، يبحث الساموراي عن معهدّ أو مدرسة لتدريبه على طقس الانتحار؟ ليس مجرد لحظة موت، بل إعلان علني عن الفلسفة القاسية التي حكمت عالم «الجمهور القاتل»، حيث حتى الفشل أو العجز عن حماية القائد لا يُترك للصمت، بل يجب أن يُختتم أمام العيون وبطقس محدد بدقة.. أن يولد «المشهد» أن يغرز السيف في بطنه ليس فعلًا سريعًا ينهي الألم، بل عملية بطيئة وموجعة، تبقيه واعيًا حتى

النهاية، وكأن الجسد يتحول إلى خطاب معلن، رسالة أخيرة للمجتمع تقول: «**أنا أتحمل العار حتى آخر نبضة**». هذه العلنية، وهذه الطاعة للشكل حتى في لحظة الانهيار، تكشف **سلطة المعايير الجمعية** التي تتحكم بالفرد حتى في موته، وإذا أسقطنا هذا المشهد على حاضرنا، فإن «الجمهور القاتل» هو ذاك الذي لا يكتفي بسقوط شخص، بل يريد أن يرى سقوطه كاملًا، علنيًا، مؤلمًا، وكأنه يتلذذ بفرجة العقوبة.. ما بدأ يومًا كإعلان عن الشرف، يتحول أمام **شهية الجمهور** إلى عرض دموي، حيث لم يعد الموت قرار الضحية وحده، بل قرار الجماعة التي يسكن داخله، ويقوده إلى أن يؤدي نهايته كما يريد المشاهدون، لا كما يريد هو.

- هذا ما يفعله «الجمهور القاتل» أما «السيد روح الله بن مصطفى، بن احمد الموسوي، الخميني دام ظله»، الشهير اختصاراً «بروح الله الخميني»، فلا يبحث عن ميتة الساموراي.

- يرتكبها لـ «الجمهور القاتل».

هذا النمط يُثير لدى الجمهور استيهامًا ميتافيزيقيًا، فالصمت والجمود يُقرأ كـ «عمق»، والزهد يُقرأ كـ «صدق»، ومن هنا يولد الخضوع الطوعي للقائد المتعالي.

النرجسية المتخفيّة – ذات تُخفي تضخّمها خلف إنكارها:

رغم مظاهر التواضع والزهد، فإن الخميني كان يحمل بنية نرجسية صلبة:

«**أنا ممثل الله على الأرض**».. امتلك شرعية مطلقة، دينية وسياسية، دون مساءلة

«**أنا المُطهّر للأمة**».. منح نفسه حق تقرير مصير الشعوب، والفصل بين الطاهر والنجس

«**لغتة يقينية لا تقبل الشك**».. خطابه خالٍ من الاحتمال أو التردد، دائمًا فوقي، إطلاقي..

هو القائد يُنكر ذاته في الشكل، ليُضخمها في الجوهر، وهنه ثنائية الطهر والنجس.

شخصية الخميني بُنيت على **تقسيم فصامي للعالم**:

طاهر	نجس
الولي الفقيه	الشيطان الأكبر
جمهور الثورة	قوى الاستكبار
حزب الله	المنافقون

- ليس ثمة منطقة وسطى: **إما مع الثورة، أو ضد الله.**

- هنه البنية تُبرر العنف، وتُحوّل القمع إلى تطهير.

نحن إذن أمام بنية ذهنية مغلقة، لا تحتمل التعدد أو الشك، مما يُعزز خطاب الإبادة الرمزية (وأحيانًا الفعلية) للخصوم.

سلطة «الأب القاسي» – الحاكم بيد الله والعصا:

الخميني تموضع في لاوعي أتباعه كـ«أب بديل»، لكنه لم يكن الأب الحنون، بل **الأب القاسي باسم المحبة**:

- يصدر الفتاوى القاتلة ببرود.

- يُجَرِّم الاختلاف باعتباره خيانة إلهية.

- يحوّل الطاعة إلى **واجب ديني وعاطفي في آن واحد.**

هذا التكوين يندرج ضمن **ما يسميه إريك فروم بـ«السلطة السادية-المازوشية»**، حيث يطلب القائد من جمهوره أن يُحب من يعاقبه، وأن يموت ليظلّ هو.

التمجيد المرضي للموت – الشعب الاستشهادي:

أبرز ما ميّز الخميني هو **احتفاله بالموت**، لا بوصفه مصيرًا بل فضيلة، الشهادة ليست نهاية، بل ذروة الإيمان.

- الدم هو ضمان الثورة.

- الموت في سبيل الله هو «الحياة الحقيقية».

وقد طبّق هذا المنطق في حربه الطويلة مع العراق، وفي قمع المعارضة **(من مجاهدي خلق إلى التيارات التنويرية)**.

-هذه النزعة تُنتج «جمهورًا انتحاريًا»، يرى في فنائه خدمة للقائد والعقيدة.

تلاشي الفرد في الجماعة:

الخميني لم يتعامل مع شعبه كأفراد، بل كـ«أدوات تحقق إرادة الله من خلاله هو» فـ :

- لا وجود لحقوق فردية أمام «أوامر الإمام».

- الطاعة العمياء هي ذروة الإيمان.

- الاعتراض هو خروج عن الإسلام، لا مجرد موقف سياسي.

- الجمهور هنا يفقد هويته، ويصير جسدًا جمعيًا يتحرك بأمر «الروح الإلهية» القابعة في الإمام.

بالنتيجة:

الخميني هو نموذج الزعيم **اللاهوتي-الشمولي**، الذي يختزل الله في ذاته، وذاته في الدولة، والدولة في القمع المقدّس، وفيه يلتقي: الزعيم والأب، والإله، والجلاد، والمخلّص.

أما **الجمهور** فهو الطفل، والضحية، والمؤمن، والمنتحر.

والعالم خارجه؟ فتنة يجب قمعها.

الجمهور القاتل في دولة الخميني، لم يتكوّن فجأة، إنه نتاج زواج قبيح بين طاغية جريح من الداخل، وجماهير مجروحة، تبحث عن خلاص كاذب، وفي هذا الزواج، يُقتل الأبرياء، وتُطمس الحقيقة، وتُخلق أمة من العبيد.

لكن ماذا عن الشخصيات القاتلة التي أورثت جمهوراً قاتلاً دون أن تستحوذ على السلطة في بلادها بعد؟

ماذا عن **«الراديكالي غير الدولتي»** داخل الحركات الإسلامية الجهادية، حيث **تتجسّد السلطة في صورة الزعيم-المجاهد**، لا بوصفه حاكمًا لدولة، بل ممثلًا للإرادة الإلهية عبر القتال والتكفير.

- **سأستعرض لشخصيتين:**

أسامة بن لادن. الشيخ الحالم:

بن لادن قدّم نفسه في هيئة «المجاهد الزاهد»، صاحب الأموال التي تركها في سبيل الجهاد، فهو:

- يرى نفسه **نقياً بالكامل**، بلا شك أو ذنب.

- هو **الناطق باسم الأمة**، والمُفوّض بإعلان الحرب على «الكفر العالمي».

- لم يتحدث سوى بلغة المطلقات العقائدية (**دار الكفر، دار الإسلام، الطواغيت، الفسطاط**).

هو شخصية تُغذي اعتقادًا بأن «الله يتحدث من خلاله».

خطابه اتسم بـ«توهّم القدرة الكلية»:

- كان يظن أن تفجير برجي التجارة سيفجّر الصحوة الإسلامية في كل مكان.

- اعتقد أن التاريخ يمكن تغييره ببعض «العمليات القتالية النوعية».

- خطابه عاطفي، مملوء بالنوستالجيا للخلافة.

- بن لادن لم يكن محرضًا على الموت فقط، بل كان **يصنع للموت جمالية لغوية، فمن خطبه:**

- «يا أهل الإسلام، إن طريق الجنة قد فُتح، وإن أبوابها مشرعة، فهل

من مُشمّر؟ يا أمة الإسلام، قد هُتكت الأعراض، وسُفكت الدماء، وهُدّمت البيوت، فإما أن تنهضوا الآن، أو تلحقوا بركب الأمم الميتة».

هنه اللغة فيها بُعد خطابي مسرحي، يصور الواقع كمعركة بين الموت النبيل والخذلان، ويضع المستمع أمام اختيار حتمي، وغالبًا ما يستخدم تعبيرات مثل «الطاغوت»، «الصليب»، «العدو الصليبي»، «الراية السوداء»، إلخ، كما كان يستخدم «الإيقاع القرآني»، وكثير من خطاباته مبنية على إيقاعات لغوية مستمدة من القرآن، مما يمنحها وقعًا قويًا لدى جمهوره، هذا بالإضافة للتوظيف الأسطوري للتاريخ الإسلامي عبر استحضار معارك مثل بدر، أحد، القادسية، ومعاني البطولة في صدر الإسلام **وإلّا كيف فاز بصناعة «الجمهور القاتل»؟**

- مقاطع الفيديو الدعائية كانت شبه صوفية في تعظيم الشهادة.

- لغة الدم عنده تحوّلت إلى «عبادة».

كل هذا أسّس لسيكولوجيا **«الانتحاري الطائع»**، الذي لا يقتل لأنه غاضب، بل لأنه يحب.

أبو مصعب الزرقاوي من الفشل إلى التوحش:

«الزرقاوي» نشأ في بيئة مهمشة، وفشل في بداياته، ثم تحوّل إلى الجهاد عبر «القفز على الشعور بالدونية».

- لم يطوّر خطابًا فقهيًا مثل بن لادن، بل طوّر **لغته الخاصة المبنية على الدم والتكفير.**

- شهوته للعنف فاقت أي منطق سياسي أو ديني.

- يمكن وصف الزرقاوي كـ«شخصية حدّية ذات نزوع سادي» – يرى القتل أداة لإثبات ذاته.

– تدمير الآخر عنده كفعل تطهري:

- كان يُصوّر عمليات الذبح كـ **«تطهّر طقوسي»**.

- لا يكتفي بالقتل، بل يذبح، ويُصور، ويُكرر.

- العدو عنده لم يكن فقط الأمريكي أو الصهيوني، بل **الشيعي، والصوفي، والسني الذي لا يبايع**.

- التكفير عنده لم يكن وسيلة، بل هوية.

بعد هذا هل لنا أن نحلل الكيفية التي توصلا اليها (بن لادن . الزرقاوي) في خلق «الجمهور القاتل».. كيف صنعا هذا الجمهور؟

إن توصلنا إلى فهم هذه الظاهرة، سنكون قد قطعنا خطوة ضرورية في فهم تحوّلات الديكتاتورية من نموذجها الكلاسيكي (الحاكم الفرد، الدولة القومية، الآلة القمعية) إلى نموذجها العابر للدولة، حيث يتحوّل الزعيم إلى ايقونة جهادية، ويتحوّل الجمهور من محكوم إلى قاتل، مضحٍ بنفسه عن قناعة لاهوتية.

في هذا السياق، سنقف عند شخصيتي **أسامة بن لادن وأبو مصعب الزرقاوي**، مقارنة بـ «الزعامات القومية» التي لها مالها من «الجمهور القاتل» في محاولة لفهم كيفية صناعتهما لهذا «الجمهور».

- من الزعيم «القومي» إلى الزعيم «العقائدي المُقاتل»:

بينما اعتمدت أنظمة مثل صدام والقذافي وحافظ على الدولة/الجيش/الحزب، فإن بن لادن والزرقاوي اعتمدا على **نموذج بديل**:

الزعيم الجهادي	الديكتاتور القومي
سلطة العقيدة	سلطة الدولة
خلايا عقائدية	جهاز أمني
الانتماء العقائدي الأممي	الانتماء الوطني
الجمهور كمُنفّذ لواجب إلهي	الشعب كمُطيع

شخصية بن لادن.. صناعة الجمهور القاتل:

- بنى خطابه على مظلومية إسلامية كونية (فلسطين، البوسنة، العراق، الحجاز).

- استثمر في الرموز العاطفية الكبرى (الأندلس، كربلاء، القدس)

- قدم نموذج «البطل المستشهد» الذي يحوّل الموت إلى نصر أخلاقي (وقد انتهى مستشهدا. لم يكن كاذباً).

- الجمهور القاتل عند بن لادن هو جمهور طوباوي-مظلوم، يرى في القتل استعادة للكرامة.

شخصية الزرقاوي:

- قادم من بيئة مهمّشة وعنيفة.

- له ماضٍ إجرامي قبل أن يتدين.

- لم يكن مفكّرًا، بل مُنفّذًا متعطشًا للعنف باسم العقيدة.

- يرى في القتل وسيلة لتطهير الأمة.

- سادية مغلّفة بالفقه: ذبح الأسرى، تفجير الأسواق، قتال الشيعة

- فقه الدماء، وقد استند إلى فتاوى تشجّع على التكفير والقتل بلا هوادة

صناعة الجمهور القاتل:

أنتج جمهورًا أكثر تطرفًا من جمهور بن لادن، يقوم على:

- قتل (الشيعي، العلماني، المسيحي، المسلم المرتد) ليس فقط جائزًا، بل واجبًا، فوّطد أركان «فقه القتل».

-«مسرحة القتل» وقد اشتغل على تصوير الذبح وترويجه كدعوة وعقيدة

- الجمهور القاتل عند الزرقاوي هو **جمهور سادي-مُطهّر**، يعيش اللذة في الدم، والتقرب إلى الله بالقتل، ولقد رأينا تلامذته من «جبهة النصرة» (هم تلامذته فقد تناسلوا منه) كيف يتلذذون بالقتل في مجزرتي

الساحل السوري ومجزرة السويداء، ما بعد استيلائهم على السلطة في سوريا، وعشرات المجازر في مواقع أخرى، ما قبل السلطة.

كيف صُنِع هذا «الجمهور»؟:

تحويل الفقه إلى سلاح :

اجتزاء نصوص من التراث/ فتاوى تشرعن التكفير واستباحة الدم /«الولاء والبراء» كأداة إقصاء أخلاقي تسبق القتل/ تحويل التاريخ إلى مظلومية/ الأمة الإسلامية ضحية مؤامرة عالمية/الغرب صليبي/ والأنظمة العربية عميلة.

من بين تلك المصطلحات، ربما سيكون **«الولاء والبراء»**، هو الاسمنت الماسك للمبنى، ما يستدعي شرحه باختزال، للقارئ الذي لم يطلع على جوهره، فهو:

- المودة والاعتزاز والاتباع لمن يشارك المسلم الدين والقيم، ويكون في نصرة الحق والدين.

- وهو البراءة والتنصل والابتعاد عن أعداء الدين والمشركين، ورفض ما يخالف مبادئ الإسلام

وهو (الولاء والبراء) مفهومان يُستخدمان في الفقه لتحديد حدود الولاء والانتماء الاجتماعي والسياسي والديني، ويؤثران في العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين، خاصة في سياقات تتعلق بالتحالفات، والنصرة.

تلك هي روافع «الولاء والبراء»، ما يجعل له دورًا مهماً في بناء الهوية الإسلامية الجماعية.. في إنتاج:

- الجمهور القاتل.

تديين الغضب والانتقام:

بدلًا من قمع الغضب، يُوجه الغضب ضد «العدو» فـ الاستشهاد يصبح فعلًا جنسيًا وروحيًا في آن: «الحور العين» + «الرضا الإلهي».

تفكيك الهوية الفردية:
الفرد يُذاب في الجماعة/الطاعة للقائد بوصفه «ولي الأمر الشرعي»، مهما فعل.

تضخيم البطولة والموت الرمزي:
الشهيد يحيا أكثر مما لو عاش/ القاتل يُكافأ أخرويًا، ويتحوّل إلى أسطورة.

هل هنه ديكتاتورية؟
نعم، لكنها ديكتاتورية من نوع جديد:

ديكتاتور الجماعة الجهادية	ديكتاتور الدولة
يطلب الفناء	يطلب الطاعة
يُكفّر من يخالفه	يسجن من يخالفه
يملك جمهورًا انتحاريًا	يملك جيشًا
يريد أن يفجّر العالم ليستبدله	يريد البقاء في السلطة

في الخلاصة:

بن لادن:

- زعيم جهادي ذو بنية نرجسية-أبوية، يصوغ جمهورًا قاتلًا من المقهورين الموهومين بالخلاص

الزرقاوي:

- زعيم دموي، بنية سادية خالصة، يصوغ جمهورًا قاتلًا عبر فقه الذبح والتكفير

كلاهما التقى في نقطة واحدة:
تحويل الدين إلى محرّك للقتل، والمظلومية إلى هوية، والشهادة إلى نظام حكم.

هذان النموذجان كافيان لتوضيح تحوّل الديكتاتورية من صورتها السلطوية التقليدية إلى نسختها الجهادية المتطرفة، وكيف بات «الجمهور القاتل» ليس جمهورًا مُستَتبَعًا، بل مُؤمَنًا برسالة القتل، ومتطوّعًا لها بروح العاشق والفدائي.

هل سنكتفي بما سبق لرسم صورة «القاتل» و«الجمهور القاتل»؟ ماذا لو قمنا بمقارنته بمقولات مثل **«الجمهور الغبي»** لدى **«غوستاف لوبون»** أو **«الإنسان المهدور»** لدى مصطفى حجازي؟

- ما الذي يميز «الجمهور القاتل» عن «الجمهور العادي»؟

جمهور قاتل	جمهور عادي
ينفعل ويقتل	ينفعل ويتظاهر
يذوب فيه ويستعد للذبح من أجله	يندفع خلف رمز
مستمر ومتدبّن بمهمته	مؤقت وعابر
مفكك الفردانية، ذائب في الجماعة	قابل للعودة إلى فردانيته

من خصائص «الجمهور القاتل»:

إذابة الهوية الفردية لصالح هوية جماعية عقائدية/ تحويل القتل إلى فعل أخلاقي أو تطهيري/ **استخدام لغة دينية أو خلاصية أو قومية** تمنح القتل شرعية/ تغذية **المظلومية**. فالمقتول دائمًا يُعاد تأويله كـ «عَدُو».

الخلاصة:

غياب الحس بالذنب فالقتل يصبح واجبًا لا يثير الشك.

- من «الجمهور القاتل» إلى «الجمهور الغبي».

- هل لي أن أنتقل إلى «الجمهور الغبي»؟

سيحدث هذا ولكن بعد اعتراف، أجدني راغب به، مع علمي بأن قارئي سيستنكر ذلك عليّ:

في مواجهة ظاهرة التطرف الإسلامي، كانت معركتي الفكرية والوجدانية معقدة وعميقة، ولا أخفي على قارئي أنني، رغم رفضي القاطع لكل أشكال الإرهاب والعنف، وجدت نفسي منجذبًا عاطفيًا إلى شخصية «أسامة بن لادن»، ذلك الرجل الذي لا يمثل فقط رمزًا للتطرف بل وأيضًا تحديًا وجوديًا للعالم الذي أعرفه.. هذه الجاذبية لم تكن إعجابًا بأفكاره أو أفعاله، بل كانت نوعًا من التماهي العاطفي مع رجل يقف في مواجهة النظام العالمي، رغم كل السواد الذي يحمله اسمه.. هو سيحلّ محلي في رفضه لهذا العالم.. ثمة ما ستاكون العلاقة بيننا على النحو التالي:

- هو القادر.. أنا العاجز.

هو ما اطمح أن اكونه (قادراً) ، فيتلبسني.. أرتديه عاطفياً، وأخلعه لأنني لست هو، وربما هذا حال الآلاف من أتباعه، والفارق بيننا، أنا وهم:

- أنني استطيع خلعه عن جسدي، فيما يتحوّل إلى جزء من أبدان أتباعه.. وما من مخلوق قادر على خلع بدنه.

في المقابل، كانت صورة صدام حسين بالنسبة لي (على سبيل المثال لا الحصر) رمزًا للنفور والكره، ذلك الدكتاتور الذي حكم والعراق بقبضة من حديد، وأشعل في داخلي رفضًا كاملاً لكل ما يمثله من قمع واستبداد.. رجل يمنحك الرعب، ولا يمنحك الخيال كما بن لادن.

هذا التناقض، بين الانجذاب العاطفي لشخصية بن لادن والنبذ التام لصدام، يضعني في موقع مواجهة مع نفسي قبل أن يكون مع الآخر.

أعترف بهذا التناقض مؤمنًا بأن الاعتراف بالمشاعر المعقدة هو الخطوة الأولى نحو فهم أعمق وأكثر نضجًا لهذه الظواهر التي تتجاوز مجرد السياسة لتغوص في جوهر الإنسان ذاته.

- لكن.

- لكن ماذا؟

ربما ما أنا فيه ليس تناقضاً ولكنه واحد من أسرار الاختيار مابين كائنين قاتلين:

- أوّلهما يُطلق الخيال، والثاني يُخصيه، فالأنظمة الدكتاتورية من طراز حافظ. صدام، هي «أنظمة إخصاء»، نعم هي كذلك، ولهذا لا تتلبسك، ولكنها تخيفك.. لا تحاكيها ولكنك تخضع لها، فيما الأول يُطلق فيك روح المغامرة، التي تُطلق فيك الخيال، حال كهذا لاينفرد به نجوم التطرف الإسلامي، لا، بل سيطال «اليسار» أيضاً، فصورة أرنستو تشي غيفارا، المرسومة بين الواقع والأسطورة، صاغها الخيال الجمعي لشاب يحمل شجاعة الثائر وروح المغامر، متحرر من القيود اليومية.. هذا الخيال جعله أكثر من مجرد إنسان، صار تجسيدًا لرغبة الشباب في الثورة على الواقع، وبناء عالم جديد، حيث يمكن للفرد أن يكون بطلاً في قصة تتخطى الزمن والمكان.

- المفارقة هنا، أنني وأنا أبحث عن «الجمهور القاتل» لأعرّيه وأكشفه، لم أجد نفسي إلاّ وانضممت إليه.

- أيّ مفارقة هذه؟

- حسناً.

بعد هذا «الجمهور القاتل» الذي استعرضناه، هل سيكون بوسعنا الانتقال إلى ما يدعوه «غوستاف لوبون»:

- الجمهور الغبي؟

المفكّر وعالم الاجتماع الفرنسي «غوستاف لوبون»، هو صاحب المصطلح «الجمهور الغبي»، و «لوبون» له إنجازات بالغة الأثر على زمننا (وربما الأزمنة المقبلة) عبر بحوثه المتصلة بـ «سيكولوجيا الجماهير»، وخاصة كتابه «سيكولوجيا الجماهير» الذي ترجم عدة ترجمات إلى اللغة العربية، توفرت لي نسخة منه بترجمة من «هاشم صالح»، فـ:

- من هو «الجمهور الغبي» عند «لوبون»؟

جمهور تحكمه **العاطفة لا العقل**/ يتحرك بالجماعة لا بالفرد/ سريع التأثر بالرموز والشعارات / قابل **للغوغائية، ينسى ذاته الأخلاقية** .

يقول لوبون: **«الجماهير لا تُفكر، بل تُقاد»**.

المقارنة:

الجمهور القاتل	الجمهور الغبي
مؤدلج ومُعبّأ دينيًا	عفوي وساذج
يذبح ويفجّر	يصفّق ويهتف
يتحوّل هو إلى أداة سلطة	يستجيب لرموز السلطة
موجه نحو العنف فقط	قابل للتحول السلمي
يخلق من نفسه «قائدًا/قاتلًا»	يحتاج من يقوده

النتيجة وفق «لوبون»:

حين تُعطى السذاجة العاطفية شحنة لاهوتية أو أيديولوجية دموية، يتحوّل «الجمهور الغبي» إلى «جمهور قاتل».

«الإنسان المهدور» :

فيما سبق (من كلام) كنا مع نموذجين من الجمهور:

- الجمهور القاتل، والجمهور الغبي.

ماذا لو تتبعنا أثر «الجمهور المهدور»، وهي التسمية العبقرية التي

أطلقها مصطفى حجازي على نوع من البشر سنحاول التعرف عليه؟

قبل ذلك ثمة تعريف مختزل لمن لم يقرأ مصطفى حجازي:

هو **مفكر وعالم نفس اجتماعي لبناني**، وُلد عام ١٩٣٧، اشتهر بأعماله التي تجمع بين علم النفس والتحليل الاجتماعي، وقد ركّز في أبحاثه على تحليل **الشخصية العربية**، **والآثار النفسية والاجتماعية للتخلف والقهر**، في سياقات العالم العربي، من أبرز كتبه:

- وله:«التخلف الاجتماعي: مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور».
- الإنسان المهدور: «دراسة في سيكولوجية الجريمة والعنف».

في كتابه: «الإنسان المهدور»

الإنسان العربي يعيش في **منظومة هدر**: هدر في الكرامة، في الفكر، في الحق

- يتعرض لـ: القمع السياسي، الافقار الاقتصادي، التهشيم النفسي.

حجازي يرى أن هذا الإنسان إما:

يتحوّل إلى **سلبي خانع**، أو ينفجر في عنف هدّام (باسم الدين، أو الثورة، أو الطائفة).

ما وجه اختلافه عن «الجمهور القاتل»

الجمهور القاتل	الإنسان المهدور
نتيجة متأخرة لانفجار الهدر	ضحية منظومة هدر مستمرة
يتجاوزه عبر القتل كإثبات ذات	يعيش اغترابًا وخوفًا
يستعيد كرامته في الموت أو القتل	فاقد للكرامة
يختار العنف كعقيدة لا كأداة	قابل للانفجار أو الانسحاب

المحصلة:

«الجمهور القاتل»، هو صورة «الإنسان المهدور»، حين يتحوّل من ضحية إلى جلاّد، يضرب بسكين واحدة خصومه وماضية وآلامه.

وهو عند حجازي:

- جمهور بلا فرد، بلا عقل، بلا شكّ، إنه جمهور يقين، وكل يقين قاتل، إنه:

- إنه **الضدّ الكامل لفكرة المواطنة أو الفردانية أو حتى الإنسانية**، فإذا ما غادر «شرطه» وأعني «المهدور»، واشتغل على تحقيق نفسه عبر الاديولوجيا الدينية العنفية، يتحول إلى المعادلة التالية:
الهدر + التعبئة = الجريمة المقدّسة.

- ويبقى السؤال: كيف نحرر القاتل من داخله؟ قبل أن نحرر الأرض من سطوته؟

هذا السؤال، بالقدر الذي يعنيني على المستوى الأشمل، وأعني على المستوى الإنساني، يعنيني على «المستوى الشخصي»، أما سؤالي عن الجمهور القاتل، فهو ليس سؤالًا نظريًا، بل وجع شخصي أعيشه كسوريٍّ لفظه الجسد الجماعي خارج أرضه.. لا أسأل من موقع الفكرة بل من نفيٍ طويل، حيث يُصبح المنع من العودة إلى الوطن، منعًا من الأم واللغة والبيت.. إنني لا أكتب هذا من خارج السياسة، بل من داخل الغربة، من ذاك الفراغ الذي تركه ظل البلاد حين غاب، ولهذا لابد من العودة إلى التجربة السورية، باعتبارها المرجل والمحرقة.. محرقة السؤال كما محرقة الإجابة.

بعد نصف قرن من الحكم المتوارث في سوريا باسم الدولة، ومن احتكار السياسة والمجتمع والدين باسم «العلمانية»، جاء الانهيار.. لم يسقط النظام بفعل ثورةٍ كاملة، ولا بفعل صحوة داخلية في بنيته، بل بفعل تآكلٍ طويل الأمد من جهة، واقتحامٍ عنيف من جهة أخرى، حمل رايات الخلاص فيما خبأ وراءها أشكالًا أكثر قسوة من الهيمنة والعنف.

سقط الأسد، لكن لم تنهض الحرية، ولم تخرج سوريا من عباءة الاستبداد، بل استبدلت سطوة الفرد وسطوة الأجهزة بسطوة المعتقد المغلق، واستُبدلت صورة «الرئيس الضرورة» بصورة «الزعيم المُفترض باسم الله». وكأنّ الزمن دار دورة كاملة، لا إلى الأمام، بل إلى هاوية أخرى.

هذا الانتقال، الذي بدا لكثيرين لحظة خلاص، تحوّل إلى بوابة لفصل جديد من الألم. فاللحظة التي تهاوى فيها نظام «آل الأسد» لم تكن سوى انتقال من استبدادٍ معلن إلى استبدادٍ أكثر دموية وتغوّل، من سجون النظام إلى سجون النصّ، من بطش الدولة إلى بطش الجماعات التكفيرية.

هنا يبدأ هذا التداعي من البحث، لا بوصفه مجرد سردٍ لمجريات الإطاحة بالأسد، بل بوصفه محاولة لفهم اللحظة الانتقالية، بكل ما فيها من رجاءٍ وخديعة، من سقوطٍ وصعود، ومن التباسٍ لم يُفكّ بعد.

لنحاول هنا، أن نبدأ برسم ملامح «اللحظة» التي سبقت وأعقبت الإطاحة، بما تحمله من تناقضات وتحوّلات، لأنها ليست مجرد لحظة سياسية، بل لحظة وجودية لسوريا كبلد وللسوريين كجماعة.

ملامح اللحظة.. الهزة التي سبقت الانهيار:

كانت البلاد، قبل لحظة الإطاحة بآل الأسد، تبدو كما لو أنها صلبة، محكومة من طرفٍ واحد، يقبض على مفاصل الدولة والمجتمع والإعلام والجيش وحتى الخيال.. نصف قرن من الترويض، جعل النظام الأسدي يبدو كأنه قدر لا يتغيّر، لكن ما كان يجري تحت السطح، لم يكن صمتًا بل تحمّرًا، ولم يكن استقرارًا بل كمونًا لزلزال.

- وهكذا كانت سوريا على حافة هاوية متعددة الطبقات:

- طبقة من الغضب المكبوت، منذ مجازر الثمانينات في «حماه» وحصار المدن وخنق السياسة.

- طبقة من الإحباط الجمعي، لدى أجيال كاملة نشأت على وهم الإصلاح والانفتاح، ثم اصطدمت بجبروت الأجهزة.

- طبقة من الشعور بالغربة في الوطن، حيث بات الناس يعيشون في الخوف، ويتوارثونه كقدر عائلي.

لكن الأهم، أن البلاد كانت تشهد **تفككًا داخليًا صامتًا**:

- المجتمع لم يعد موحّدًا إلا ظاهريًا، بل صار موزعًا بين مَن تمّت مأسسته في خدمة السلطة، ومَن تشرذم في الهامش، ومَن انكفأ إلى الدين، أو الطائفة، أو العشيرة، أو الهجرة.

- الفقر انفجر كحقيقة يومية، لا كأرقام في تقارير الأمم المتحدة.

- الفساد لم يعد استثناءً بل قاعدة، والطغيان لم يعد يخفف من قبضته، بل ازداد بطشًا تحت غطاء «محور الممانعة».

في هذه اللحظة، لم تكن سوريا دولة، بل قشرة دولة، تحكمها شبكة أمنية، وتؤمّن بقاءها عبر توازنات إقليمية، وتحتمي بلغة قديمة لم تعد تقنع أحدًا.

وحين انطلقت **شرارة الربيع العربي**، لم يكن السؤال:

- هل ستصل إلى سوريا؟، بل:

- متى؟ وكيف؟

ومع أول صيحة «حرية»، بدأت التصدعات تظهر، لا في جدار النظام فقط، بل في العمارة السورية نفسها.

حين سقط الأسد، أو بالأدق حين تمّ خلعه من المشهد مع انهيار كل مؤسساته دفعة واحدة، لم يكن الفرح مكتملًا، لأن القادم كان مجهولًا، بل ومخيفًا.. كان البعض يظن أن سوريا ستنهض بديمقراطية تعددية، فإذا بها تقع في قبضة جماعات تحمل الفكر الديني الأكثر تطرّفًا، وتوظف الدين بوصفه سلاحًا للهيمنة.

- سقط رمز الدولة، فنهضت شظاياها.

- صارت الأرض مساحات تتقاسمها الفصائل.

- وُلدت سلطات أمر واقع، لكل منها رايته وروايته وأجندته.

- ارتبك السوري، لا يعرف بأي لغة سيطالب بحريته: بلغة مدنية؟ أم دينية؟ أم طائفية؟

- لم يعد يعرف إن كانت ثورته باقية، أم أُفرغت من معناها.

هذا هو المشهد الذي نبدأ منه تتبّع مجريات الإطاحة، لاكفعل سياسي فحسب، بل كمخاض مرير ولّد خيبة كبرى، وصنع لحظة انتقال ما زالت مفتوحة على المجهول، لحظة كان عليّ أن أتذكّر ما يسعني التذكّر منها، متجاوزاً قول «البير كامو»:

- لكي يتحمّل المرء جيداً، عليه أن لايتذكّر كثيراً.

ولكنني اتذكّر.

مجريات الإطاحة بالأسد.. من الشعار إلى الانفجار.

المرحلة الأولى شرارة الكرامة (مارس ٢٠١١)

- **درعا**، المدينة الهامشية في جنوب البلاد، تُطلق الصرخة الأولى بعد اعتقال أطفال كتبوا على الجدران «جاك الدور يا دكتور».

- النظام يرد بالرصاص الحيّ، فيقتُل ويُشيّع، وتتحول الجنازات إلى مظاهرات، والشعارات إلى عدوى.

- المشهد في بدايته وكأن البلاد كلها على وشك استعادة روحها المخنوقة.

المرحلة الثانية: عسكرة الثورة (صيف ٢٠١١- ربيع٢٠١٢)

- أمام القمع الوحشي، تتشكل النوى الأولى لما سُمّي لاحقًا «الجيش السوري الحر».

- الانشقاقات تبدأ: جنود، ضباط، وحتى بعض موظفي الدولة.

- السلاح يُحمل أولًا للدفاع، ثم للهجوم.

- ساحات التظاهر تبقى، لكن تغطّيها أصوات الرصاص تدريجيًا.

المرحلة الثالثة: تدويل الصراع (٢٠١٢- ٢٠١٣)

- النظام يستنجد بحلفائه: إيران، ثم حزب الله، ثم روسيا.

- المعارضة تتحوّل إلى طيف واسع: من ناشطين مدنيين إلى كتائب مسلحة متعددة الولاءات.

- دول الجوار تبدأ بدعم أطراف المعارضة، كلّ وفق مصالحه.

- معارك تشتد: بابا عمرو، حمص القديمة، حلب، دوما، إدلب... سوريا تتحوّل إلى خريطة معارك مفتوحة.

المرحلة الرابعة: صعود الجماعات الجهادية (٢٠١٣- ٢٠١٥)

- الفراغ يولّد الوحوش:

- «جبهة النصرة» ثم «داعش» تدخلان المشهد، الأولى بشعار النصرة، والثانية بشعار «الخلافة»

- تتراجع شعارات الحرية أمام زحف الرايات السوداء.

كثير من السوريين الذين خرجوا ضد الاستبداد يجدون أنفسهم في مناطق تسيطر عليها أنظمة أكثر بطشًا ممن ثاروا عليه.

المرحلة الخامسة: سقوط الأسد كرمز بين (٢٠١٦- ٢٠١٨)

- لم يُعلن سقوطه رسميًا، لكنه انهار كرمز:

- لم يعد يحكم البلاد فعليًا، بل يسيطر على بقعٍ منها فقط.

- القرار في دمشق لم يعد بيده، بل في يد موسكو وطهران.

- الشعب السوري، بعمومه، لم يعد يراه إلا واجهة، حتى أنصاره باتوا يتحدثون عنه بحذر وريبة.

- رمزيًا، لم يعد «الرئيس»، بل صار بقايا صورة.

المرحلة السادسة: تثبيت الخراب (٢٠١٨ حتى الإطاحة به)

- النظام لم يسقط تمامًا، لكنه أُطيح من موقع السيطرة الكلية.

- البلاد صارت مناطق نفوذ: روسي، تركي، أمريكي، إيراني.

- المعارضة لم تنتصر، لكنها صارت سلطة في منافٍ داخلية.

- المجتمع تفتّت، والناس تقطّعت بهم السبل بين لاجئ، ومهجّر، وأسير واقع مُشوّه.

بهذا المعنى، لم تكن الإطاحة بالأسد حدثًا واحدًا كالرؤساء الآخرين (مبارك، القذافي، بن علي، عبد الله صالح)، بل سقط بأسلوب يشبه نظامه: تدريجيًا، عبر التآكل، والدم، وتكاثر الوجوه على أنقاض وجهٍ واحد.

تبعات الإطاحة بالأسد:

أولًا: تفكك الدولة – من المركز إلى الشظايا:

بعد الإطاحة الفعلية بالأسد كمرجعية موحدة، سقط مفهوم الدولة المركزية في سوريا، وبدأت تظهر سلطات أمر واقع في كل منطقة، بل في بعض الأحيان، ضمن الحيّ الواحد.

تعدد السلطات:

- الشمال الغربي تحت نفوذ فصائل معارضة مدعومة من تركيا.

- الشرق والشمال الشرقي تحت سيطرة قوات سوريا الديمقراطية/ الإدارة الذاتية.

- الجنوب محكوم بتفاهمات هشة بين النظام وبعض الفصائل، والسويداء نظّفت نفسها من كل ملامح النظام، وصولًا لما يشبه الإدارة الذاتية.

- العاصمة دمشق وبقايا «الدولة» تحت حماية روسية – إيرانية مشتركة.

- لم تعد هنالك مرجعية قانونية موحدة، بل سادت قوانين متباينة، وأحيانًا لا قانون على الإطلاق.

ثانيًا: من الشعب إلى الجماعات:

لم يكن الأسد وحده من سقط، بل **الشعار الذي بدأ به السوريون ثورتهم «الشعب السوري واحد»**، فقد تشرذم الشعب إلى طوائف، ومذاهب، وعرقيات، ومناطق، وحسابات ثأر.

- نصف الشعب بات خارج بيته، إما لاجئًا أو نازحًا.

- أكثر من ٦ ملايين خارج الحدود، ومثلهم تقريبًا داخلها بلا مأوى مستقر.

- السوريون باتوا يخافون من بعضهم أكثر مما يخافون من النظام.

ثالثًا: انكسار الفكرة – من الثورة إلى التيه:

- لم يعد واضحًا: هل ما جرى كان ثورة؟ انتفاضة؟ حربًا أهلية؟ تمردًا مسلحًا؟ صراعًا دوليًا؟ حتى أصحاب الثورة تباينت رواياتهم، وتحولت الذكرى من مصدر فخر إلى ذكرى جرح.

- جيل الثورة عاش لحظة الإيمان الكامل بالتغيير، ثم صُدم بخيانة الجميع: القوى الدولية، المعارضة الفاسدة، الجماعات، وحتى بعض «الثوار».

- كثير من هذا الجيل إما غادر السياسة كليًا، أو غادر الحياة نفسها.

- الإطاحة بالأسد لم تُنقذ سوريا، بل فتحت أبواب الأسئلة الكبرى من مثل:

من نحن؟ ما الدولة؟ من يحكم؟ بأي شرعية؟ وما ثمن الحرية إن جاءت على يد أمراء الحرب؟

لقد خرج السوري من سجن الأسد، لكنه **لم يجد مفتاحًا للبيت الذي خُرّب على يد الجميع.**

تمزق المجتمع السوري.. حين انقلب السوري على ظله.

أولًا: من وحدة موهومة إلى انكشاف الطوائف.

قبل الثورة، حافظ النظام على قشرة من الوحدة الوطنية، فرضها لا بالحوار أو العدالة، بل بالقمع والتخويف بل والتزييف ولغة التكاذب بديلاً

عن المكاشفة، كان الخطاب الرسمي يكرّر عبارة «سوريا علمانية» و«سوريا للجميع»، بينما تُدار البلاد من خلف ستار طائفي معلن ضمنيًا، ومقموع علنيًا.

- النظام نفسه قام على **تحالف طائفي-أمني**، لكنه حرص على ألا يُعلن ذلك صراحة.

. الطائفية كانت موجودة في بنية السلطة، لا في لغة الناس، أما الناس، فكانوا يتحدثون بها في السر، ثم يصمتون في العلن.

حين خرج السوريون يطالبون بالحرية، خرجوا بصيغة جامعة، عابرة للطوائف، لكن الردّ الأمني كان يحمل في داخله **لغة الطائفة**:

القمع الشرس الذي واجه المدن السنية (درعا، حمص، حماة، دوما، إدلب...)، أعاد إلى الأذهان خطاب «الإخوان» من الثمانينات، ومع تزايد القتل، بدأ كثير من السوريين يرون الحدث من منظور طائفي: «من يقتلنا؟ ومن يصمت على قتلنا»؟
وهكذا، بدأ التصدّع يظهر:

- **المطالب الوطنية واجهها الردّ الطائفي، فاستدعى الرد الطائفي المضاد.**

ثانيًا: صعود الخطاب الطائفي – حين استُبدلت الحرية بالهوية

مع تحوّل الثورة إلى صراع مسلح، بدأ الخطاب يتغيّر:

- من «الشعب السوري واحد» إلى «العلوية عالتابوت».

- من «الحرية» إلى «الجهاد».

- من «الوطن» إلى «الثأر».

واللاعبون الجدد غذّوا هذا الانقسام:

- **النظام** استخدم الطائفية كوسيلة للبقاء، فحوّل القتال إلى دفاع عن «الأقليات» في وجه «الإرهاب السنّي».

- **المعارضة المسلحة**، خاصة بعد دخول الجماعات الجهادية، أعادت إنتاج الخطاب الطائفي المعاكس، فرُفعت الرايات السوداء، وصدحت التكبيرات بدل الهتافات الوطنية.

التدخلات الخارجية ساهمت في تعميق الاصطفافات:

- إيران وحزب الله دعموا النظام تحت غطاء حماية «المقامات» و«خط المقاومة».

- دول الخليج دعمت فصائل ترى في الصراع جزءًا من حرب عقائدية.

وهكذا تحوّلت سوريا إلى حرب مذهبية إقليمية، لا لحراك حرية وكرامة.

ثالثًا: الاصطفافات الطائفية – حين صار الجار خصمًا.

- في كثير من المناطق، انهارت العلاقات الأفقية بين الناس، وأصبح الانتماء الطائفي هو المحدّد الأول للثقة أو الخوف.

- العلوي بات يُنظر إليه في مناطق المعارضة كـ «مؤيد للنظام بالضرورة»، والسني في مناطق النظام كـ «داعشي محتمل».

- المسيحيون، الإسماعيليون، الدروز، الشركس، وحتى الأرمن، **صاروا في موقع الحذر أو الانكفاء.**

مدن بكاملها تشرذمت:

- **حمص**، التي كانت يومًا قلبًا للثورة، أصبحت خط تماس طائفي مفتوح.

- **دمشق**، مدينة التنوع، باتت مدينة للحواجز والحسابات الطائفية الدقيقة.

- **حلب** تقاسمتها الجماعات كأنها غنيمة حرب.

رابعًا: الخراب الأعمق

الطائفية لم تدمّر فقط اللحظة الثورية، بل **أعادت تشكيل السوريين كغرباء عن بعضهم البعض:**

- كثير من السوريين باتوا يعرّفون أنفسهم أولًا بطائفتهم، لا بوطنهم.

ظهرت سرديات جديدة.: **«نحن» و «هم»**، بدل «نحن السوريين»،

- الأجيال الجديدة، التي نشأت في المخيمات أو في مناطق النفوذ، تتربى على **ذاكرة من الكراهية والخوف**، لا من الأمل المشترك.

وباتت الطائفية أداة:

- النظام وظّفها، والمعارضة وقعت في فخها، والإقليم صبّ الزيت على نارها.

لكن السؤال الحقيقي الآن ليس فقط:

- من أشعل الطائفية؟

بل بات:

- هل يمكن لسوريا أن تُبنى من جديد على أساس غير طائفي؟
أم أن هذه الجروح أصبحت جزءًا من هوية البلد الجديدة؟

تلك أسئلة تستدعي الدخول إلى **جذور العطب السوري العميق**، لا بوصفه نتاج العقد الأخير فقط، بل كحصيلة تاريخ طويل من التجاور القلق، والتعايش القسري، والخرائط المصنوعة خارج إرادة الناس.

سوريا الـ «أمّة»: الشعوب المتجاورة تحت خريطة مستعارة.

منذ ولادتها ككيان سياسي عقب الحرب العالمية الأولى، لم تكن سوريا «أمّة» بالمعنى الذي تُبنى فيه الأمم على إرادة جماعية، أو سردية موحّدة، أو حلم مشترك، بل كانت نتيجة اتفاقات استعمارية، رسمت حدودها بريشة ضابطين بريطاني وفرنسي (مارك سايكس. فرانسوا جورج بيكو)، دون أن تسأل مكوناتها إن كانت راغبة في العيش معًا.

سايكس – بيكو لم تُقسّم فقط الجغرافيا، بل فرضت تجاورًا بين جماعات إثنية وطائفية ودينية، لكل منها تاريخها، وذاكرتها، ومخاوفها،

داخل هذه الحدود الوليدة، تعايشت جماعات لا تملك سردية وطنية مشتركة، بل سرديات متنافسة أو متضادة أحيانًا:

- جزء من السنة كانوا يرون أنفسهم امتدادًا تاريخياً عثمانياً أو إسلامياً.

- العلويون الذين ظلّوا قرونًا في الهامش، بين المظلومية والتحايل للبقاء.

- الدروز الذين تمترسوا في الجبل حفاظًا على خصوصيتهم ومخاوفهم.

- المسيحيون الذين تقلبوا بين الرغبة في الحداثة، والخوف من المآلات الإسلامية.

- الأكراد الذين لم يُمنحوا حتى الحق في تسمية أولادهم، مع أنهم جزء أساسي من تاريخ البلاد.

بذلك، نشأت سوريا كعمارة هشّة، لا بوصفها تعبيرًا عن «إرادة شعب»، بل كمنتج مباشر لموازين القوى العالمية، ووريثة لفشل الدولة العثمانية، ثم فشل الدولة الوطنية لاحقًا في توليد هوية تتجاوز الطائفة والعرق.

- مجازر السلطة: من الساحل إلى الجبل

حين استولت السلطة – البعثية فالأسدية – على البلاد، لم يكن مشروعها بناء هوية جامعة، بل ترويض الجماعات بالقوة، وتفكيك توازناتها التقليدية، وكلما واجهت هذه السلطة تهديدًا، كان ردّها مجزرة.

مجازر الساحل.. العلويون في مرمى الكراهية:

بعد عقود من توظيف نظام الأسدين **الأب والابن** للعلويين كحاضنة سلطوية، وجد كثير من أبناء الطائفة أنفسهم يدفعون ثمن موقع لم يختاروه، بل فُرض عليهم قسرًا، ومع احتدام الصراع، وخروج الريف السني عن سيطرة النظام، بدأت حملات مسلحة تستهدف **القرى العلوية في الساحل**، خاصة في ريف اللاذقية الشمالي.

- في أغسطس٢٠١٣، وقعت مجزرة جبال الساحل، حيث هاجمت فصائل مسلحة قرى ذات أغلبية علوية، وقتلت وذبحت مدنيين، بينهم نساء وأطفال.. والمشهد كان انتقامياً بالتأكيد.

هذه المجازر، التي لم تُدن بالوضوح الكافي من قبل المعارضة السياسية، **عمّقت خوف العلويين، ورسّخت خطاب «نكون أو لا نكون»**.

أولًا: ماذا تعنيه هذه المجازر؟

ما بعد سقوط نظام الأسد، واستيلاء جبهة النصرة باسمها الجديد «هيئة تحرير الشام» على السلطة، وقعت المجزرة الثانية الأكثر دموية بمواجهة العلويين.. شهود العيان يؤكدون أن ما جرى في الساحل السوري لم يكن «أعمالاً فردية» أو «ردود فعل غاضبة»، بل **حملة تصفية جماعية استهدفت مكوّنًا طائفيًا محددًا**، بذرائع «الانتقام» من الموالين لبشار الأسد، أي أن **الطائفة أُدينت كجماعة**، لا كأفراد، وهذا أخطر ما يمكن أن يصيب مفهوم الدولة.

.عندما يُقتل الناس لأنهم علويون فقط، فذلك يعني أن «الوطن» كهوية جامعة لم يعد قائمًا، وأن **الانتماء صار لعصبة دموية لا لمدنية العيش**.

تقرير لرويترز لا يدع مجالاً للشك في أن **قنوات رسمية في وزارة الدفاع** كانت على اتصال مباشر مع المجموعات التي ارتكبت المجازر (ميليشيات، فصائل، عناصر أمنية، والأخطر من هذا وذاك تلك الحملات من **«الجماهير القاتلة»** التي تهتف **«الله اكبر/ تكبير»** والتي جاءتهم من محافظات أخرى)، **وهذا يعني أن المجزرة:**

- لم تكن «انفلاتًا أمنيًا» كما زعمت حكومة «النصرة»، بل كانت فعلاً مقصوداً ومدروساً، وإن غلّف بخطاب «الانتقام من بقايا النظام» الذين أطلق عليهم تسمية «الفلول».

هذا يعني تورط حكومة أحمد الشرع مباشرة، أو على الأقل يثبت **تورط قيادات ميدانية محسوبة عليها**، جرى التستر عليهم لاحقًا بتقرير لجنة التحقيق المشكلة من قبل حكومته، والتي برّأت القيادات العليا من المجزرة ونسبتها لـ **«أخطاء فردية»**.

السؤال هنا:

- ما هي العقلية التي قادت إلى هذه المجازر؟

- **هل يصح تسميتها بـ «عقلية الثأر الجمعي»؟**

السلوك الذي اتبعته القوات الموالية للحكومة الجديدة (ميليشيات محلية + فصائل معارضة سابقة، والجمهور القاتل) يؤسس على منطق الانتقام من الجماعة لا الانتقام من جناة العهد الماضي، وقد رأينا هذا النمط في:

- مذابح البوسنة ضد المسلمين.

- مذابح الروهينغا.

- مذابح دارفور.

كلها تشترك في **نزع إنسانية الجماعة المستهدفة**، وتحويلها إلى **رمز للخيانة أو للعدو**، ثم اعتبار كل فرد فيها مشروع خطر يجب التخلص منه، ليكون وراء كل ذلك الاستعداد لما يسمى بـ اجتثاث **«تحالف الأقليات»**، وفي واقع حالها لا تختلف عن المذابح التي سبق تعدادها وأعني «البوسنة، الروهنغا، دارفور»، وبالوسع إضافة رواندا مع اختلاف المحجوم»، فأوجه الشبه واسعة، وتفتح على مقاربة عميقة تتقاطع فيها السياسات بالهويات، والدولة بالعنف، والاديولوجيا بالإبادة.

جميع هذه المذابح اشتركت في أن الضحايا قُتلوا لا لشيء فعلوه، بل:

- **لما هم عليه.**

في سوريا: العلويون والدروز والإيزيديون استُهدفوا لكونهم «طوائف غير سنية» في سياق صعود خطاب جهادي سني متشدد.

في رواندا: التوتسي قُتلوا بوصفهم «عرقًا أقلية» اعتُبر خائنًا أو متآمرًا على الحكم.

في البوسنة: مسلمو البوسنة قُتلوا بوصفهم «تهديدًا لصربيا الكبرى».

في دارفور: القبائل الإفريقية استُهدفت بسبب خلفيتها العرقية من قبل ميليشيات الجنجويد المدعومة من الحكومة المركزية ذات الهيمنة العربية.

القتل هنا كان قتلًا للهُوية، لا للفعل، واوجه الشبه بين هذه المجازر ليست عرضية، بل هي بنيوية، جميعها تُظهِر كيف يمكن لـ : الهوية أن تتحول إلى ساحة حرب، والعنف يبرر بالخطاب المقدّس، والضحايا ينبغي نسيانهم بعد أن يُذبحوا.

إنها مجازر جرى فيها **تنظيم الكراهية وتصنيع العدو وتحويل الخوف إلى مشروع قتل.**

- **عقلية «غسل التاريخ بالدم».**

يبدو أن بعض القوى رأت أن **العلويين كجماعة** كانوا «المستفيدين» من نظام الأسد، ولذلك كان لا بد من **إعادتهم إلى حجمهم التاريخي» بالقوة»**، ويحدث هذا بعد أن تعمم الجرح على الجميع، كما بعد أن تستعاد سرديات الماضي (مثل مجازر الثمانينات) لتبرير سفك الدماء اليوم.

غسلاً للدم بالدم.. هذا ما حدث في سوريا، حتى ان أحد المقاتلين الإسلاميين، وفي مجازر السويداء، توقف مصوّباً لرجل خمسيني، وهو يردد، السؤال:

- أنت من؟

- درزي؟

ثم رشقه بصلية من الرصاص.

- هو مشهد مصوّر، ومنقول على صفحات التواصل، هو مشهد يقول: **هذا آخر سوريّ يُقتَل.**

- **عقلية التفويض المقدّس.**

الفصائل المشاركة في المجزرة، خصوصًا الإسلامية منها، تحرّكت كما لو أنها مفوّضة من **الرب والتاريخ** لتصفية الحساب، وهذا يعيدنا إلى الذهنية

الجهادية، حيث لامجال للرحمة، ولا تمييز بين المدني من القاتل، ولا تفريق بين رجل وامرأة وطفل، وقد دعمت هذه الذهنية سردية إعلامية مفادها أن: «العلويون لو عادوا، فسيذبحوننا، فلنذبحهم أولاً» (هذا مع ثقة الجميع أنهم لن يعودوا إلى السلطة، ف «في العالم الثالث، من يفقد السلطة لا يستعيدها») وأظن أن ما بين هلالين يعود إلى وصف لـ محمد حسنين هيكل.

• **عقلية «ما بعد الحقيقة»**

المثير أن المجزرة حدثت في عهد حكومة يفترض أنها «ما بعد الأسد»، وأنها جاءت لتبني دولة جديدة، لكن هذا الحدث يكشف أن:

- الأجهزة الأمنية لم تتغير، بل اعيد تفعيلها تحت رايات مختلفة، وأن الطائفية كانت عميقة جداً في الوعي الجمعي وفي صفوف **«الجمهور القاتل»**، كما تؤكد أن المجازر ليست انفعالاً، بل صورة مكثفة للعقل الباطن الجماعي عندما يفلت من القانون.

- ما الذي تكشفه هذه المجازر فعلاً؟

-أن سوريا، حتى بعد سقوط الأسد، ما تزال **مريضة بخطايا الطائفية**، وبتاريخ من القهر والانتقام لم يُعالج بل زاد تعفنًا.

- أن مشاريع «العدالة» تفشل حين تُدار بعقلية **الجمهور المنتصر لا القاضي**.

- أن الدولة التي لا تحتكم إلى قانون مستقل، تتحول إلى **أداة قتل جماعي مهما كان شكلها الخارجي**.

- من يملك السلاح، يكتب القوانين ويقرر من يُعاقب.

• **العقلية القاتلة.. عقلية الثأر الجمعي:**

يُظهر سلوك المرتكبين أنهم لا يميزون بين المدني والمقاتل، بل يرون في كل علوي مشروع خطر يجب تصفيته، تلك عقلية **الحرب الأهلية الكامنة** التي لم تُحل، بل وجدت في غياب الدولة فرصة للظهور.

• **تصحيح التاريخ بالدم**

ثمة رواية خفية غذّت هنه المجازر: «العلويون حكموا بالحديد والنار لعقود، وحان الوقت لإعادتهم إلى حجمهم الطبيعي».. إنها **رغبة في محو جماعي لا في تحقيق عدالة فردية.**

• **التفويض المقدّس**

القتل جرى كما لو أنه **وصية أخلاقية أو دينية**، وليس مجرد فعل انتقامي.. الفاعلون تحركوا تحت شعارات الثورة، أو حماية الهوية، أو التطهير، وكلها قوالب **تبريرية تُفرغ الإنسان من قيمته.**

هل هناك أمل بعد المجزرة؟

مجزرة الساحل ليست حدثًا عابرًا، إنها علامة خطيرة على أن **سوريا ما بعد الأسد لم تتحرر من أداة القتل**، بل نقلتها من سلطة إلى سلطة، ومن نظام إلى معارضة، ومن ضحية إلى ضحية.

- «إن لم تُحاسب الدولة الجديدة مرتكبي المجازر، وإن لم تعترف علنًا بالطابع الطائفي للجريمة، فإننا أمام **تأسيس لدورة جديدة من الدم**، هنه المرة **باسم الثورة، لا باسم النظام**، وكل ملامح المشهد تشي بهنه النتيجة».

كنت قد كتبت هذا عبر منشور في صفحتي على الفيس بوك، فكانت الردود:

- **تكفيراً لي.**

تعليقات وردود لا تخلوا من التأكيد على أنني اكتب هذا بفعل هويتي الطائفية، ليعاد تصنيفي ضمن هوية لم أنتمِ إليها أبداً.. هويتي تُختزل بشكل آلي في إطار ضيق لا يعكس حقيقتي أو تجربتي الشخصية، هنه التجزئة القسرية تخنق حريتي في التعبير وتبعدني عن جوهر ما أريد قوله، **فتصبح الرسالة مشوهة بحكم مسبق** لا أشارك فيه، وهنا يتظهّر لي «الجمهور القاتل» في الفضاء الأزرق.

- **«الجمهور القاتل» في مجازر الساحل.**

قبل مجزرة الساحل بسنوات، شهدت مناطق سورية مختلفة مجازر لاتقل في جوهرها ودوافعها عنفاً ودموية عن مجزرة الساحل، مثل مجزرة البيضا وبانياس ومناطق في ريف اللاذقية، كان ذلك عام ٢٠١٣، مع تلك المجازر نكتشف أن ما جرى لم يكن **«رد فعل فردي» بل «فعل جماعي»**، استُخدمت فيه أدوات قتل بدائية (السكاكين، الحرق، الإعدامات الميدانية) في بعض القرى التي كان يسكنها علويون، وردت شهادات عن مشاركة مدنيين من القرى المجاورة، لا ينتمون بالضرورة لفصائل عسكرية مباشرة، في تلك المجازر.. يمكن توصيف «الجمهور القاتل» في هذا المثال بما يلي:

- جمهور مستثار عاطفياً، تغذى بخطاب طائفي وشحن مذهبي مكثّف استمر لسنوات.

- جمهور يجد في القتل تطهيراً أو ثأراً، ولا يرى الضحية كفرد، بل كمُمثل لجماعة مسؤولة عن ألم جماعته.

- جمهور يتحول إلى أداة قتل طوعية، لا يَقتل تحت الإكراه، بل بالاندفاع.

- **جمهور ينهار فيه الحاجز الأخلاقي الفردي** لصالح «شرعية جماعية» تبرر الفعل، بل وتجعله بطولياً.

«الجمهور القاتل».. ما من هوية ثابتة.

«الجمهور القاتل»، يبدو كما لو انه منحصر بالإسلام الراديكالي (القاعدة باشتقاقاتها) ، أو بالدكتاتوريات العلمانية، ورؤية كهذه، ربما تحمل «انحيازاً» يفقد البحث موضوعيته، ويعطب ضمير الباحث معاً، ذلك أن «الجمهور القاتل» أكثر تماسكًا وموضوعية، هذا إذا انتقلنا من مقاربة تحصر الظاهرة في الأيديولوجيات الكبرى (الإسلامية الراديكالية والأنظمة الدكتاتورية) إلى تحليل البنية العميقة لأي جماعة، بما فيها الأقليات الإثنية والدينية، وهذا سيفتح أمامنا ثلاثة مسارات بحثية مترابطة:

١. الجمهور القاتل كاحتمال كامن لاكهوية ثابتة:

الفكرة الأساسية: كل جماعة بشرية تحمل في داخلها، تحت ظروف معينة، قابلية التحول **من ضحية إلى «جمهور قاتل»**.

- هذا التحوّل لا يحتاج إلى اديولوجيا كبرى بالضرورة، بل قد ينشأ من:

• ذاكرة المجازر والإبادة التي تعيد إنتاج نفسها في شكل ثأر جمعي، أيّ من «عقدة المظلومية».

• الأساطير التأسيسية التي تقدّس البقاء بأي ثمن.

ومن الخوف الوجودي، الذي يجعل الخوف وقائياً في الخيال الجمعي.

٢. حالات الأقليات الإثنية/الدينية كمثال

يمكننا أن تستعرض أمثلة تاريخية توضح كيف كانت بعض الأقليات ضحايا، ثم تحوّلت — في ظرف سياسي أو جغرافي معين — إلى جمهور قاتل:

- تورط الميليشيات الدرزية في قتل جماعي خلال الحرب الاهلية اللبنانية.

- في أرمينيا بداية التسعينيات، ارتكبت ميليشيات أرمنية مجازر بحق الأذريين في قره باخ.

- عمليات قتل طائفي في مجازر حماه ١٩٨٢ (ثمة العديد من المجازر في حماه ارتكبت لدوافع طائفية ارتكبها ضباط من الأقليات المذهبية على اختلافها، وكان ضحاياها من السنّة).

- عمليات قتل طائفي خلال الحرب الأهلية الراهنة ارتكبها العديد من جنود وضباط الجيش الرسمي، طالت مجاميع من السنة و (لدوافع طائفية أيضاً).

٣. آليات التحول من ضحية إلى قاتل

هنا يمكن أن نبني إطارًا تحليليًا يوضح الشروط التي تجعل أي أقلية أو أكثرية تتورط في القتل الجمعي:

- خوف من الإبادة يجعل العنف «**دفاعًا مسبقًا**».

- الميليشيات التي تتشكل لحماية المجتمع (عند الأقليات: دروز، علويين، اسماعيليين، مسيحيين وسواهم) **قد تتحول لأدوات قتل خارج سياق الحماية.**

- عندما تتحول المظلومية إلى خطاب سياسي يومي، تصبح مبررًا لأي عنف، وماكينة لإنتاج «الجمهور القاتل».

- الدخول في تحالف مع دولة أو قوة مسلحة تمنح الغطاء لارتكاب العنف.

الجمهور القاتل ليس هوية، بل حالة قابلة للتشكل في أي جماعة، إذا اجتمعت ظروف الخوف، السلاح، و» الشرعنة الأيديولوجية».

ثم، ماذا لو رسمنا خارطة تحمل عنوان:

- من «**الجمهور الضحية**»، إلى «**الجمهور القاتل**» مع أمثلة من الأقليات الإثنية والعرقية؟

من الجمهور الضحية إلى الجمهور القاتل:

١. مرحلة الجمهور الضحية

السمات: ذاكرة جمعية مثقلة بالمجازر/ خوف وجودي مستمر من الإبادة/ تماسك داخلي حول سردية المظلومية .

٢. شروط التحوّل

(كلما اجتمعت أكثر، زاد احتمال التحول).

كلما زادت المخاوف ينمو مقابلها «الجمهور القاتل».

حيازة السلاح والخبرة العسكرية.

الشرعنة الأيديولوجية أو الأسطورية.

تحويل البقاء إلى واجب مقدس، وتقديس رموز «الثأر».

التحالف مع قوة أكبر

٣. مرحلة الجمهور القاتل

- تبرير العنف ضد «الآخر» باعتباره تهديدًا دائمًا.
- تسييل ذاكرة المظلومية في خطاب التحريض.
- محو الفروق بين المدني والمقاتل في وعي الجماعة.

٤. آلية إعادة الإنتاج

الجمهور القاتل اليوم، قد يصبح ضحية غدًا إذا فقد القوة أو تغيرت موازين القوة.

ثمة نماذج تاريخية موازية لـ«الجمهور القاتل»، يمكن الاكتفاء بعناوينها:

رواندا (١٩٩٤). – مجازر الهوتو ضد التوتسي

في ١٠٠ يوم قُتل حوالي مليون شخص، معظمهم بالسواطير، على يد جمهور عادي (جيران، زملاء عمل، أصدقاء).

الخصائص المشتركة:

- خطاب كراهية ممنهج عبر إذاعة «ميل كولين»، فقد كان راديو ميل كولين، لا يبث أخباراً محايدة، بل كانت تُقدّم برامج تبدو في ظاهرها ترفيهية أو ساخرة، لكنها مليئة برسائل تحريضية مباشرة ومبطّنة، من بينها **إعطاء أوامر مباشرة بالقتل**، أحياناً كانوا يذكرون أسماء أشخاص أو أحياء محددة، ويطلبون من المستمعين «التخلص» منهم فوراً، أما في بلادنا فكانت تلفزيونات مرموقة كمحطة **«الجزيرة»** تفعل ذلك، وربما عبر البرامج الأكثر شهرة، ومن بينها برنامج **«الاتجاه المعاكس»** الذي طالما حرّض على العلويين ووصفهم بأوصاف تحقّر من إنسانيتهم.
- وصم جماعة التوتسي بالخيانة والانتماء للأعداء.
- مشاركة شعبية واسعة في القتل، وكأنها «واجب قومي».

كيف يتحول القتل إلى وظيفة؟

«حنة أرندت» الفيلسوفة والباحثة السياسية (ألمانية-أمريكية من أصل يهودي)، والتي تُعد واحدة من أبرز المفكرين السياسيين في القرن العشرين، اشتهرت بتحليلها العميق للسلطة، والشر، والتوتاليتارية، وقد ركزت أعمالها على تفكيك الظواهر السياسية الحديثة كالإبادة الجماعية، والدكتاتورية، وفقدان المعنى السياسي للحرية، تناولت بعمق وبرؤيا ثاقبة لما نحن بصدد البحث عنه الآن ونعني **«الجمهور القاتل»**.. تناولته تحت عنوان **«تفاهة الشر»** و «كيف يتحوّل القتل إلى وظيفة».

خلصت إلى فكرة: في كتابها الشهير، «تفاهة الشر: محاكمة آيخمان في القدس»

«الشر يمكن أن يُرتكب بلا شر.. أي بدون نية شيطانية، بل بمجرد أداء الوظيفة».

ما قصدها بذلك؟

حين حضرت محاكمة **آيخمان**، الذي كان مسؤولًا عن لوجستيات ترحيل اليهود إلى معسكرات الإبادة، توقعت أن ترى شيطانًا دمويًا، لكنها وجدت شخصًا «رماديًا، بيروقراطيًا، يُكثر من الاقتباسات القانونية، ويبرّر كل شيء بأنه كان ينفذ الأوامر».

«ما كان مرعبًا في «آيخمان» ليس أنه وحش، بل أنه كان عاديًا، مبتذلًا، موظفًا جيدًا في آلة الشر.

- هكذا وصفته آرندت.

وهنا وضعت مفهوم «تفاهة الشر»:

الشر لا يأتي دائمًا من الكراهية العميقة أو السادية، بل أحياناً من «اللاتفكير»، من العجز عن وضع النفس مكان الآخر، من الانصياع.

ترى آرندت أن المجتمعات الشمولية (مثل ألمانيا النازية، أو الاتحاد السوفييتي الستاليني)، «تفكك الفرد وتحوله إلى مجرد جزء من جمهور مسيّر».

الجمهور هنا ليس جماعة من الأفراد الأحرار، بل:

- **كتلة فقدت التفكير: لاتسأل، لاترفض، بل تطيع وتنفذ.**

وفي حالة «الجمهور القاتل» كما في مجازر الساحل، أو رواندا، أو المجازر التي طالت الايزيديين نجد صدى عميقًا لهذا التحليل:

- **الجمهور لا يتوقف ليسأل: من هذا الذي أذبحه؟**

فقط يطلق عليه صلية من الرصاص.

حدث ما يشبه هذا في مخيم البرموك، ولكن على يد جندي علوي، يطلق رصاصه على مجموعة من معصوبي الأعين، بواقعة تبعث على القشعريرة، وتحمل اسم **«مجزرة الحفرة»** أو **«مجزرة التضامن»**.

تؤكد **آرندت** أن ما يحمي الإنسان من الانخراط في القتل ليس «الخوف من القانون»، بل **القدرة على التفكير الأخلاقي**، أي القدرة على أن يسأل نفسه:

. هل يمكنني أن أعيش مع نفسي إن فعلت هذا؟

لكن في حالة «الجمهور القاتل»، **يتم تعطيل هذه الأسئلة**، لأن الفرد:

- يفقد ذاته وسط الجماعة، ويرى الفعل من خلال عيون القائد أو الحشد، ويجد في الطاعة حماية داخلية، وهو ما يجعل القتل أسهل من الامتناع عنه.

ما خلصت إليه آرندت هو أن الشر الحديث لم يعد فعلاً استثنائيًا يُرتكب بوعي، بل **قد يكون فعلاً تافهًا، يوميًا، بلا تأمل.**

- القاتل لا يرى نفسه قاتلًا، بل:

- يحمي أهله، «يثأر للضحايا»، أو ببساطة:

- ينتمي إلى الحشد.

مقارنة بمجتمعنا.. كيف نُنتج هذا القاتل؟

ما نستخلصه من **آرندت** يمكن ربطه بتجربتنا السوري، ، فحين يتم:

- شيطنة الآخر لسنوات (العلوي، الشيعي، السني، المسيحي).
- تحويل الهوية إلى ذنب.
- نزع الفردانية عن الضحية.
- تبرير القتل كـ «ضرورة وجودية».

فإننا نكون أمام بيئة تنتج «آيخمانات» محلية، ليسوا وحوشاً بل جمهورا قاتلاً، لا يسأل، ولا يفكّر، ولا يتردد.

حنة آرندت لم تكتب عن سوريا، ولا عن رواندا، لكنها كتبت عن **الشر حين يصبح جماعيًا، وروتينيًا، ومبررًا.**

وما تراه في تحليلها يمكن أن يكون مفتاحًا لفهمنا نحن أيضًا:

- **لماذا نقتل؟**

- ومتى يتوقف القاتل عن أن يكون فردًا، ويصبح «جمهورًا»؟
- وهل يمكن للفرد أن يحتفظ بضميره حين تغرق الجماعة في الدم؟

الدروز في المرمى:

رغم محاولاتهم المتكررة للنأي بالنفس، لم ينجُ **«دروز السويداء»** من نيران الكراهية التي عمّت البلاد، ففي يوليو ٢٠١٨، نفّذ تنظيم **«داعش»** هجومًا منسّقًا على محافظة السويداء، **أوقع أكثر من ٥٢٠ قتيلًا في يوم واحد**، معظمهم من المدنيين.

الهجوم لم يكن مجرد عملية إرهابية عابرة، بل بدا أنه تم **بغضّ طرف من نظام الأسد، أو بتواطؤ ضمني**، خاصة أن داعش خرج من البادية التي تسيطر عليها قوات الأسد.

هذه المجزرة كشفت هشاشة الموقع الدرزي في المعادلة السورية، ودفعته لإعادة ترتيب خياراته من جديد، لا في ضوء الشعارات، بل في ضوء الدم.

- الدروز في المرمى من جديد:

الجرح الأعمق لم يكن في ٢٠١٨، بل في الأسابيع القليلة الماضية مطلع آب ٢٠٢٥، حيث وقعت **مجزرة كبرى طالت السويداء وريفها**، في واحدة من أكثر اللحظات دموية في تاريخ السويداء الحديث، فقد أُحرق **أكثر من ٢٣ قرية**، وقُتل مئات من المدنيين، بينهم شيوخ ونساء وأطفال، فيما تم خطف العشرات، وتهجير مئات العائلات، وسط تواطؤ داخلي مريب.

الجهة الفاعلة لم تُعلن بوضوح، رغم أنها نسبت للعشائر والبدو، لكن كثيرًا من المؤشرات تشير إلى فصائل ذات صبغة طائفية مسلحة، تنتمي لمليشيات محسوبة على النظام.. هي من ارتكبت المجزرة او بغطاء منها.

هذه المجزرة ليست فقط جريمة حرب، بل **إعادة إنتاج مقصودة للذاكرة الجماعية للكارثة**، واستدعاء مباشر لأشد **ما تخشاه الجماعة الدرزية:**

- أن تُترك وحدها أمام الإبادة، دون حليف ولاغطاء.

وهكذا، وجد الدروز أنفسهم مرةً أخرى **ضحية خطاب الكراهية المركّب**، دون أن تخلو ساحاتهم من الرد على الخطاب بخطاب من ذات الطراز.

- في نظر السلطة، هم «طائفة مشكوك في ولائها».

- في نظر الجماعات المتشددة، هم «كفار الجبل».

- وفي نظر كثير من الإعلام الموجّه، هم جماعة غامضة تستحق الإقصاء أو التجاهل.

وما حدث لا يُعدّ فقط مجزرة ميدانية، بل **مجزرة في الوجدان السوري**، حيث تمرّ الكارثة مرور العابر، بلا حداد وطني، بلا تضامن صادق، بل وسط تواطؤ بالصمت أو التبرير أو الإنكار.

لم يعد القتل مجرد خطاب سياسي أو عسكري، بل لغة حياة، تُنتجها الشاشات، وتغذيها وسائل التواصل، وتُعاد صياغتها يوميًا في المقاهي، في الصفوف، في البيوت.

وهكذا، فكلا المجزرتين بمواجهة الدروز، لم تكونا فقط فعلين إجراميين، بل **مفصلين في صناعة الكراهية**، وتغذية الذاكرة الطائفية المتبادلة، وتحويل السوريين من شركاء في المصير إلى **غرباء على أرض واحدة**.

خطاب الكراهية.. نار لا تخبو:

إذا كانت المجازر هي لحظة الذبح، فإن خطاب الكراهية هو **السكاكين التي تُشحذ كل يوم**، ففي سوريا ما بعد الإطاحة بنظام الأسد، لم تتوقف الحرب عند مستوى الرصاص والقصف، بل تسربت إلى اللسان والعقل والذاكرة، وأصبحت **اللغة نفسها مسيّجة بالتحريض، ملوّثة بالتحقير، ومُهندسة على أسس طائفية وعرقية**.

أولًا: وسائل التواصل – الساحة الكبرى للكراهية المجانية.

في ظل غياب الفضاء العام، وانتقال الناس من الشارع إلى الشاشة، أصبحت وسائل التواصل الاجتماعي هي المكان الأوسع لبث الكراهية:

- **فيسبوك وتويتر ويوتيوب** تحولت إلى منصات لتصفية الحسابات الطائفية، وصار كل حدث سياسي أو ميداني فرصة لتفريغ شحنة الغضب على «الآخر الطائفي»، تنتشر عبر مقاطع فيديو «موثقة»، لكنها مختزلة بعناية لخدمة سردية طرف واحد، وتُرفق بتعليقات مشحونة تحرّض على الانتقام لا الفهم.

- الشتائم أصبحت أدوات تحليل سياسي، **لا حسيب ولا رقيب**، بل جمهور يُصفق، وجمهور آخر يردّ بعنف مضاد، وهكذا تُدار «المعركة السردية» كحرب أهلية رقمية لا تنتهي.

ثانيًا: الإعلام – القنوات كسكاكين.

المحطات التلفزيونية، الرسمية والمعارضة، كانت ولا تزال من أهم **مُصنّعي خطاب الكراهية:**

- في إعلام النظام، يُستخدم **خطاب التخوين والتكفير** ضد المعارضين، ووصمهم بأنهم «خونة مأجورون»، دون تمييز.

في الإعلام، يُصور العلويون ككتلة واحدة متواطئة، والمسيحيون كصامتين، والأكراد كانفصاليين، ويُعاد إنتاج فكرة **«العلوية عالتابوت»** تحت مسميات جديدة: «مناطق شبيحة»، «قرى موالية»، «طوائف مدعومة من إيران».

المحتوى لا يُقدّم سياقًا بل يُقدّم كبش فداء:

- القاتل هو الطائفة، لا النظام، **الخيانة هي في العرق، لا في الموقف.**

وبين هذا وذاك، تغيب الحقيقة، ويُستبدل بها شريط عاطفي متخم بالانتقام.

ثالثًا: الشارع.

ليست الكراهية حكرًا على النخب أو الشاشات، بل تسربت إلى الكلام اليومي للناس:

- في الباصات، تسمع من يُقسم أن «فلانًا لا يُؤتمن» لأنه من الطائفة الفلانية.

- في الجامعات، يُعاد تعريف الطلبة حسب طوائفهم.

- في الشارع، تُطلق النكتة الطائفية على أنها «فكاهة»، بينما هي تخزين يومي للغضب والكراهية.

- في القرى والمدن، صار الناس يعرفون «من أي طائفة أنت» قبل أن يعرفوا اسمك.

لقد تحوّل الانتماء الطائفي من خاصية كامنة إلى بطاقة هوية اجتماعية تُلصق بك دون رغبتك، وتُلاحقك حتى في الصمت.

النتيجة: الخوف لم يعد من النظام بل من الجار، من زميل العمل، من البائع، من المدرّس.

بتنا لا نرى أنفسنا إلا عبر صور مشوّهة صنعها الآخرون، فالكراهية لم تعد رد فعل، بل أصبحت **بُنية إدراك للعالم**، ولم تعد المشكلة فقط في

الدم المسفوك، بل في اللغة التي تبرّره، ولم تعد المأساة في المجازر وحدها، بل في الوجدان الذي صار يراها **«مستساغة»** أو **«مفهومة»** .. هكذا، أصبح السوريون لا يخافون من المجازر القادمة، بل من **صمتهم عنها.**

تحوّل الجمهور إلى جمهور قاتل:

يبدو أن أحد أكثر الأسئلة إلحاحًا في دراسة تاريخ العنف الجماعي هو:

- كيف يتحول الناس العاديون، الذين يعيشون حياتهم اليومية، إلى قتلة جماعيين؟

عندما نتأمل في مآسي الإبادة الجماعية أو التطهير العرقي، قد تتبادر إلى الذهن صورة «القاتل المهووس» أو «المتطرف المتعصب»، لكن الواقع أكثر تعقيدًا ورعبًا، ففي كثير من الأحيان، يكون القتلة هم جيران وأصدقاء وزملاء، أفراد من المجتمع نفسه، غير متميزين عن بقية السكان إلا في لحظة تحوّل محددة.

هذا التحوّل من «الجمهور العادي» إلى «الجمهور القاتل» هو ظاهرة عميقة ومحورية لفهم كيفية نشوء المجازر الجماعية والفظائع.. إنها ليست مجرد نتيجة قرار فردي، بل عملية معقدة تتداخل فيها عوامل اجتماعية، سياسية، نفسية، وثقافية، وربما ستعيننا تجارب شعوب أخرى على فهم هذه الآلة الأكثر تعقيداً وأعني بها:

- آلة الكراهية.

جمهور الثورة الفرنسية والمقصلة:

حين تنتقل يد القتل من السلطة او التنظيم، أو الحزب، إلى الجمهور، لا يعني ذلك بالضرورة انتصارًا للعدالة، بل قد يكون مجرّد تبديل للجلاد، **ففي لحظة تاريخية نادرة، يخلع الجمهور عباءة الضحية، ويُمسك بخنجر القاتل**، لا ليُنشئ عهدًا جديدًا من الإنصاف، بل لينتقم، بوحشية لا تقلّ عن وحشية مضطهديه.

لقد شهدت الثورة الفرنسية مشاهدَ تقشعرّ لها الأبدان، حين انقلب الجمهور على السلطة، وسالت الدماء في الساحات، ليس فقط دماء أعداء الثورة، بل لكل من لم يُصفّق بما يكفي، وكذلك في رومانيا، حين انقضّ الشعب على نيكولاي تشاوشيسكو، لم يحتج الأمر إلى محكمة أو مرافعة، بل إلى دقائق معدودة من الغضب المتراكم، والحكم بالإعدام أُعلن من فوهة بنادق لا من منصة عدالة.

لنحاول أن نقترب من تلك اللحظة الحرجة التي يتحوّل فيها الجمهور من شاهد على الجريمة إلى فاعل فيها، من كتلة غاضبة إلى كيان قاتل، يختزل سنوات القهر في دقيقة ثأر، ولنسأل معاً:

- هل كان القتل طهارة؟ أم تكرارًا مأساويًا للّعنة ذاتها ولكن بيد أخرى؟

حين اقتحم الباريسيون سجن الباستيل في ١٤ يوليو ١٧٨٩، بدا الأمر وكأنه ولادة جديدة للحرية، لكن الولادة كانت دموية. **الثورة الفرنسية لم تكن مجرد تحرّر من الملكية، بل أيضًا خروجاً عن المألوف الأخلاقي** والسياسي والاجتماعي، ومع تزايد عنف الشارع، لم يعد الحُكم للملك، بل للجمهور، أو كما أسماه «روبسبير» لاحقًا:

- الفضيلة المسنودة بالإرهاب.

المقصلة، التي قُدّمت في البداية كأداة إنسانية تضمن «عدالة سريعة ومتساوية»، تحوّلت إلى رمز لمزاج شعبي قابل للاشتعال، تُدار به رقاب النبلاء والثوّار على حد سواء.

في ساحة الكونكورد، احتشدت الجماهير يوميًا لمشاهدة حفلات الإعدام، لم تكن المقصلة أداة باردة، بل **مسرحًا جماهيريًا** يجمع العائلات والأطفال، ويُباع فيه النبيذ والكرواسون... كان الدم جزءًا من المشهد الاحتفالي، وكان الجمهور يهتف بأسماء الضحايا، يشتمهم، ويبكي.

«روبسبير» نفسه، مفجر الإرهاب، صعد بعنقه إلى المقصلة وسط هتاف الجماهير نفسها التي هتفت له قبل يوم، وفي اليوم التالي تهتف لرأسه

المتدحرج تحت أقدام الجلاد.. لم يكن هناك توقيت ليتراجع الجمهور، لقد اصبح سيّد الحدث وشرط استمراره.

- لم يكن هناك توقيتٌ ليتراجع الجمهور؛ لقد أصبح سيد الحدث وشرط استمراره.

- هل الجمهور قاتل أم مجرد وسيلة؟

في لحظة من لحظات الثورة، لم يعد الجمهور يفرّق بين العدو والصديق، الثوار الذين بدأوا الحكاية باسم العدالة، انتهوا وهم يُعدِمون بعضهم البعض بأمر الجمهور أو بإرادته الصامتة.

- الجمهور بات شريكًا في الجريمة.

والقتل لم يكن بدافع الغضب فقط، بل أصبح طقسًا للتطهر الجمعي، وسيلة لتأكيد القطيعة مع الماضي، ومع الذات القديمة.

في الأدب.. ديكنز و«قصة مدينتين:

لقد صور لنا تشارلز ديكنز الجمهور الفرنسي في «قصة مدينتين»، صوّر الحشد، الحشد الذي:

- لم يكن يبحث عن العدالة... كان يبحث عن الدم... دم مَن؟ لا يهم.

شخصية «مدام ديفارج»، التي تحيك الأسماء على النسيج تمهيدًا لإعدامهم، لم تكن امرأةً، بل رمزًا للجمهور المنتشي بالثأر. الحياكة كانت **قائمة موت** جماعية، تشبه اليوم قوائم الاغتيالات الرقمية، لكن أكثر بدائية ووحشية.

- وشياطين الحشد:

لقد أهدانا الاسباني **«فرانسيسكو خوسيه دي غويا»** لوحته ، تلك المسماة **«الثالث من مايو ١٨١٨»** والتي تصور إعدام الثوار الإسبان على يد جنود نابليون، وتُعتبر من أعظم اللوحات المناهضة للحرب، في لوحته ما يجسد الرعب نفسه الذي انتجه «الجمهور القاتل»، الجمهور المهووس بالدم..

الوجوه الممسوسة، العينان الواسعتان، الأذرع المرفوعة كأنها تطلب المزيد... وكأن الحشد لا يكتفي.. كانت الصور تقول ما عجزت عنه الكلمات:

- الجمهور حين يتحوّل إلى كائن جماعي لا عقل له، بل جوع إلى القتل.

- هل يطلب الجمهور المقصلة لأنه ضعيف؟

هنا أستعيد **إريك فروم**، حين رأى في **«الهروب من الحرية»**، أن الفرد قد يختار «الدمج في الكل» هربًا من مسؤولية الحرية، **وهكذا الجمهور حين يهتف للمقصلة، يكون بلا مسؤولية**.. بلا تفكير، بل بالطاعة العمياء للغرائز المعمية.

سيكون الفرد داخل الجمهور:

- يتنازل عن عقله، ويدخل في حالة من الإيحاء الجماعي... يصبح أكثر استعدادًا للقتل، والهدم، والتضحية، وفي حال كهذا لم تكن المقصلة أداة قتل، بل عين الجمهور.. لم تكن المقصلة تدار باليد، لكنها تُحرّك من قبل العين، ومع المشهد، وكان مشهداً بالغ الوضوح في فيلم «الثورة الفرنسية»، رأينا كيف صوّر المخرجان العملاقان روبرت إنريكو في جزئه «سنوات الامل»، وريتشارد تي. هيرفون في «سنوات الغضب»، وبعيون عبقرية سقوط الفكرة الرومانسية عن «الجماهير الطاهرة».

- لا.. الجمهور ليس طاهراً.. هو القاتل المؤجّل الذي قال فيه رسول مغامرة الحكمة في اللغة العربية، وأقصد «أبو الطيب المتنبي»:

والظلمُ من شِيَمِ النفوسِ فإن تجدْ
ذا عِفَّةٍ فلعلّةٍ لا يَظلِمُ

- إعدام تشاوشيسكو:

إذا كان الفرنسيون قد صفّقوا للمقصلة، فإن الرومانيين سيهتفون **لتشاوشيسكو** قبل لحظات من الانقضاض عليه، يهتفون لحياته، حياة

«القائد الملهَم»، «نبي الأمّة»، يهتفون بالولاء له، ثم فجأة يحدث التحوّل الجماعي العاصف لتتحول الساحات إلى مسرح دموي وقد بدّل الجمهور ولاءاته، لينفذ حفنة من الجنود إعدامه بالرصاص وإلى جانبه زوجته «إيلينا» المكبّلة، والتي وقفت بقوة وصرخة مختلطة بين تحدي وانكسار، قبل أن يسدل الموت ستار النهاية على حياة مليئة بالقسوة والاستبداد.

مجمل هذا سيقودنا إلى السؤال:

- من هو الجمهور؟

- من هو جمهور «من الطاعة إلى القتل»؟

- هل هو جمهور الغريزة، النكاية، التطهّر، التماهي، الانقلاب؟

- هل هو علاقة مركّبة من الرهبة، التقديس، الحقد، الثأر؟ هل هو كل هذا حين يثور أو حين يغدر؟

- ثم، ما هو «الجمهور» من غوستاف لوبون إلى إريك فروم؟

يرسم **غوستاف لوبون** صورة الجمهور في كتابه المرجعي **«سيكولوجيا الجمهور»** بوصفه كائنًا مستقلًا، له سيكولوجيا خاصة لا تنطبق على أفراده فرادى.

الفرد في «الجمهور القاتل» يفقد وعيه الأخلاقي.. ينصهر، ويتحوّل.. إلى **«كائن جماعي»** مهيّج، قابل للتصديق، للتبعية، وللعنف، فالفرد داخل الحشد، يتخلّى عن تفكيره، ويتبنى لاشعوريًا أفكار الجماعة، ذلك أن الانضواء في **الجمهور ليس فقط فعلاً جماعياً، بل هو التخلّي عن «أعباء الحرية»**.. هو يهرب إلى الحشود، يسلّم إرادته كي لايواجه.

بين **«لوبون»** و**«فروم»**، يظهر الجمهور ككائن متحوّل، لكنه دائم **الميل إلى التنفيس العنيف، كأنه يحمل في داخله طاقة زائدة لا تفرَغ إلا بالصراخ، التهشيم، أو التقديس المفرط.**

- هل يتغيّر الجمهور، أم يكشف ما يُخفيه؟

في أزمنة الطغيان، يبدو الجمهور مطيعًا، خاضعًا، بل عاشقًا للزعيم.. يصفق له، يهتف، يبكي في حضرته، لكن ما إن تسقط الهيبة، أو يُكسر الخوف، حتى ينقلب الجمهور فجأة، ويطلب الدم نفسه الذي كان يؤلهه.

- هذا الانقلاب لا يعني أنه تبدّل، بل أنه **كفّ عن الكذب**.

الطاعة المطلقة لم تكن حبًا، بل **خوفًا مقنّعًا أو حقدًا مكبوتًا، تماماً كما في العلاقات السامّة بين المتسلّط وجمهوره الخاضع.. يوم يضعف المتسلّط ينقض عليه الخاضع بكل الغضب المؤجل:**

من هتافات «بالروح بالدم نفديك» إلى «يسقط... يسقط».

الجمهور لا يبدّل قناعاته، بل يكشفها حين تسمح اللحظة.

- القذافي .. ما الذي يدفعني لاستحضاره؟

لا أدري ما الذي يدفع مشهد مقتل القذافي إلى مناماتي، ربما لأنني قرأته ذات يوم، وكنت واحداً من بين جمهور متحذلق، متسوّل، وكنت حريصاً على أمرين لم يخالطهما ثالث:

- روح المستطلع، وكرامة «ابن العائلة»، فأنا ابن رجل قالها لي: «قد لا أترك لك مجداً، ولكنني لن أتسبب لك بالعار أبداً».

- حفظت كلام أبي هذا، واطلقته وعداً لأولادي.

مشهد مقتل القذافي، هو المشهد المزيج من الغضب المزمن، المُخزّن، يظهر فجأة في لحظة ضعف الخصم.. الجمهور لا يغفر بسهولة، بل يثأر لزمن طويل من الإذلال، وليس دائمًا بالعدل، بل غالبًا بالوحشية، فهل علينا للبرهان عن ذلك، أن نقوم باستعارة مشهد نهاية «معمر القذافي»؟

- حسناً، فلنحاول استعادة الصورة على دمويتها:

في مجرى ضيق لمياه الصرف، تحت سماء رمادية تعوي فيها رائحة الدخان والاحتراق، انكفأ الرجل الذي حكم ليبيا لأربعة عقود.. لم

يكن يحمل «الكتاب الأخضر»، ولا كان محاطًا بجوقة المجد، بل ببقايا حرس مفكك، وجراح تنزف من كل موضع.

كان يزحف، لا هاربًا فحسب، بل كما لو كان يبحث عن حفرة تبتلعه قبل أن تبتلعه الكاميرا.

لحظة القبض عليه، لم يكن ثمة قرار محكمة، ولا بند في دستور.. **كان هناك فقط حداء غاضب، ودم يسيل، وعينان زائغتان لرجل أدرك، أخيرًا، أن التاريخ لا يُكتب من داخل خيمة.**

ركلات، صفعات، صيحات «الله أكبر» تختلط بالشتائم.. جسده يُسحب من شعره المستعار، كأنه لم يكن يومًا صورة على النقود أو ملك ملوك أفريقيا، وبين الركلات، كان صوته المجوح يتسلل:

- **حرام عليكم... حرام عليكم.**

لا أحد كان يصغي في تلك اللحظة، لم يكن القذافي شخصًا، بل كان رمزًا للوجع الليبي، مجسّدًا في جسد بشري يُجلد أمام كاميرات العالم، نزف من رأسه، من فمه، من خاصرته، لكنه ظل حيًّا... لبضع دقائق أخرى.

لقد وُثق قاتلوه تعرضه للضرب والسحل، وهناك لقطات تُظهر طعنات على جسده، خاصة في مؤخرته، ما يشير إلى اعتداءات همجية.

العالم كله كان حاضرًا، وشاهداً على نهاية لم تكن محاكمة، بل **تفريغًا هائجًا للانتقام**.. ربما لو كان صامتًا حتى النهاية، لظل في عيون بعضهم طاغية مغرورًا، لكنه في لحظته الأخيرة، كان مجرد عجوز ملقى في صندوق سيارة، يتوسل الحياة، ويحدق في الوجوه ولا يرى الرحمة في أيٍّ منها.

- **التماهي:**

في تلك اللحظة، غادر «القذافي» موقعه كزعيم، وغادر جمهوره التماهي به، قبل لحظات الذروة تلك، كان الجمهور يتماهى مع «المخلّص» أو «الزعيم».. التماهي هناك هو شكل من التعويض: **«أنا فيه... هو أنا»**

لكن التماهي نفسه قد ينقلب إذا خُذل الجمهور، ليتحوّل إلى كره مسعور، كما حدث للقذافي، فهل كان علينا وصف الاحتفالات الهائلة التي كانت تهتف بحياة من انتهى إلى تلك النهاية؟

- **نعم** فالجمهور سيغيّر وجهه، لا يحاكم ذاته، بل يحاكم رموزه.. هو نفسه الذي يرفع الزعيم، ثم يهوي به، لا لأنه نضج، بل لأن زعيمه **فقد الرهبة**.

وفق حال كهذا، ومشاهد كتلك، كيف لنا أن نصف «الجمهور»؟

دعونا نستعير «وليم شكسبير»، ذاك الذي رأى في الجمهور ليس كتلة من المتفرجين، بل حطام الإنسانية، فالجمهور ليس سوى متقلب، غوغائي، شاعر حيناً وسفّاح حيناً آخر.

نعم، شكسبير، ذاك الذي عرف **الملك والخادم، العاشق والقاتل، المهرج والحكيم**، ثم وضعهم جميعًا على نفس الخشبة، وجعلنا نفهم أن الإنسان، هو المسرح كله، وهو الذي جعل الجمهور يرى نفسه حين يضحك على **«يورك المسكين»**، وحين يبكي مع **«لير العجوز»**، وحين يهتف للموت كما لو كان مهرجانًا.

في عالم شكسبير، لا أحد بريء تمامًا، ولا أحد شرير تمامًا، بل كلنا نتقلب في مشيئة الزمن، وغالبًا ما نصل إلى الحقيقة متأخرين، أو لا نصل.

هل أستعيد مقصلة «الكونكورد» الباريسية ثانية، وأغادر عوالم شكسبير؟

- يبدو أنني سأعود إلى «الثورة الفرنسية»:

الجمهور الذي احتشد لرؤية الدم في فرنسا القرن الثامن عشر، يختلف في أدواته عن جمهور اليوم، لكنه لا يختلف كثيرًا في نوازعه، كل ما تغيّر، هو أن المقصلة استُبدلت بالشاشة، والصراخ بالتصفيق الإلكتروني، والحشد الفيزيائي بالحشد الرقمي، ومع ذلك، الرغبة في «الفرجة على العقوبة» ما زالت حيّة.

- في «**الكونكورد**» كانوا يشاهدون سقوط الرأس... ونحن نُعيد مشهد السقوط آلاف المرات على «**اليوتيوب**».

- الزمن لم يُهذّب الجمهور، بل جعل القاتل يرتدي وجهاً آخر، فلا نبيذ ولا كرواسان بمواجهة الشاشات في منازل العزلة وبين جماهير اليوتيوب التي تتابع المقتلة، كما هو الحال في ساحة المقصلة العظيمة. ما تغيّر هو الشكل، لكن «الجمهور القاتل» بقي كما هو:

جمهور الشاشة	جمهور المقصلة
يعلّق: يستحق، كان فاسدًا، خرجوا	يهتف: عند سقوط الرأس
يشارك في الإعدام بالموافقة	يشارك في الإعدام بالحضور
يؤمن بعدالة شعبية مفترَضة	يؤمن بعدالة لحظية سريعة
يغضب فرديًا ويشتعل مع الجموع الرقمية	يغضب في الجموع وينطفئ منفردًا

جمهور واحد بأقنعة جديدة:

الجمهور، سواء في ساحة الثورة أو خلف شاشة، ما يزال:

- **يريد أن يتخلّص من السلطة التي قهرته**، لكنه يفعل ذلك بطريقة قد تجعل منه سلطة قاهرة جديدة.

- **يرغب بالعدالة**، لكنه يميل إلى الانتقام لأن العدالة تتطلب تبصّرًا، بينما الثأر لا يتطلب سوى انفعال.

- **يرفع رموزه في لحظة**، لكنه يسحقهم في اللحظة التالية إن شعر بالخيانة أو الخذلان.

من المقصلة إلى الجمهور الإلكتروني، هل تغيّر شيء؟

- في زمن المقصلة، كان الجمهور يتجمهر ليشهد القتل.

- في زمن الشاشات، الجمهور **يصوّت على من يستحق «الإلغاء» أو «الفضيحة» أو «الإعدام الرمزي».**

التقنية منحت أدوات جديدة، لكن الغريزة ذاتها بقيت حيّة.

لنتابع المشهد.. مشهد يأتي في سياق السؤال:

- كيف يأكل الجمهور آلهته؟

جمهور تماثيل صدام — من العبادة إلى التكسير.

المشهد: بغداد، نيسان ٢٠٠٣

في ساحة الفردوس، تقف تماثيل صدام حسين كما وقفت لعقود، مرتفعة، مهيبة، لا يجرؤ أحد على النظر إليها بعين غير مُحِبة، لكن هذا اليوم لم يكن كالأيام السابقة.. الدبابات الأميركية على أبواب العاصمة بغداد، والجنود العراقيون يفرون هاربين، **والزعيم غائب عن المشهد**، ليحضر **الصحّاف** وزير إعلامه وصانع ضجيجه، فيما سماء بغداد محمّلة بوجع يشبه النهاية، ثم، تحت عدسات العالم، يتقدّم أحدهم، ويلقي حبلًا حول عنق التمثال ويبدأ التكسير.. تتهاوى القطع البرونزية، وتعلو الهتافات.

- الجمهورُ الذي كان قبل ساعات يعيش في ظلّ التمثال، أصبح الآن راقصًا على أنقاضه.

- المشهد تكرر في سوريا مع تماثيل حافظ الأسد.. ثمة صبي ثابر مع سقوط التمثال على ركله بالحذاء، وهو يصرخ:

- أبن القحبة.. أبن القحبة.

صدام لم يكن فقط رئيسًا، كان أبًا جبّارًا، مخيفًا، حاضرًا في البيت والمدرسة والصورة والعملة والمذياع، أما الجمهور الذي هلّل لسقوط التمثال، فلم يكن ينتقم فقط من الزعيم، بل من **ذاته الخاضعة القديمة**..

كان التكسير نوعًا من الاحتفال المتأخر بالخروج من عباءة الأب الرمزي.

أسأل صديقتي الملمّة بالمصطلحات العلمية لوصف حال كهذا، أو تعريف له، تجيبني:

. في علم النفس، يُعرف هذا الفعل بـ «التحرّر من التماهي القسري».

ثم اعود لموسوعة في علم النفس لأستوضح أكثر.. إنه:

- انفصال الوعي عن هوية مفروضة أو دور اجتماعي أو ثقافي تم تبنيه تحت ضغط خارجي، واكتساب القدرة على اختيار الذات بوعي حر.

هنا سيولد السؤال المربك:

- هل الجمهور كان مؤمنًا بالطاغية؟ أم يختبئ تحت، في ظله؟

هل كان الجمهور يُحب صدام؟
هل كانت الهتافات حقيقية؟

الإجابة المؤلمة:

- ربما، أو لا نعرف.

فالخوف طويل، والطغيان يجعل الوجوه تتشابه، حتى لا نميّز بين العاشق والخائف.

لكن الذي نعرفه أن:

الحشود التي صفّقت لصدام، والتي بكت عند خطاباته، هي ذاتها التي راقبت سقوطه بصمت، أو رقصت فوق ترابه.

وهكذا فالجمهور الذي كان شريكًا في صنع الأسطورة، كان شريكًا في هدمها.

ما الاختلاف ما بين:

جمهور مقصلة «الكونكورد، ورأس روبسبير يتدحرج تحت شفرتها؟ وجمهور إعدام تشاوشيسكو وهو يرتجف ويستظل بزوجته؟ وجمهور بغداد وهو يصفع البروتز باعتباره صدام حسين وقد اتخذ روح الحجر؟

في البدء كانت المأساة.. المسرح وجمهور المصير:

في المسرح الإغريقي القديم، الجمهور لم يكن مجرد متفرّج، فالجوقة التي تمثل صوت الشعب، وتعلّق على الاحداث، كانت حاضرة:

- **في «أوديب الملك»** لسوفوكليس، الجمهور يُشفق على أوديب حين يكتشف أنه قتل أباه وتزوج أمه، لكنه لا يمنعه من اقتلاع عينيه، وهكذا فالجمهور **هنا ليس القاتل، لكنه القابِل بالحُكم.. إنه الصوت الأخلاقي الذي يصفّق للعقوبة حين تبدو ضرورية.**

-**في الغريب لألبير كامو**، يُحاكم مورسول لأنّه لم يبكِ في جنازة أمه.. الجريمة الفعلية (قتل العربي) تُهمّش، ويُركّز القاضي والجمهور على «**برود**» المتهم.

كامو هنا يفضح كيف يصبح الجمهور **حَكَمًا أخلاقيًا مهووسًا بالمطابقة والتقاليد، يحكم ليس بناء على الجريمة، بل بناء على السلوك «غير المريح».**

- مورسول يُدان لأنه **لم يشبههم.**

- **في الإخوة كارامازوف**، يظهر مشهد «المفتش الكبير»، حيث يعود المسيح إلى الأرض، لكن الكنيسة (الجمهور الذي حوّل الدين إلى مؤسسة) تسجنه.. المفتش يقول له:

- لم نعد بحاجة إليك.. **الناس لا يريدون الحرية**، بل يريدون أن نمنحهم الطمأنينة باسمك.

هنا، الجمهور لا يقتل، بل يُفرغ الفكرة من معناها، يحتفظ بالقشرة، ويذبح الروح.

- **في رواية الطاعون** لألبير كامو أيضًا تُظهر كيف يتحوّل الناس تحت ضغط الخطر الجماعي: في البداية، إنكار، ثم هلع، ثم بحث عن كبش فداء، ثم محاولة للتكافل، ثم تعب، ثم لا مبالاة.

الجمهور هنا، ليس شريرًا بطبعه، لكنه **يتبدّل مع السياق**، عندما يخاف يبحث عن عدو، وعندما يتعب قد يسامح القاتل.

جمهور الغدر في «يوليوس قيصر» — من التأييد إلى الطعن.

شكسبير يصوّر جمهور روما في مسرحيته الشهيرة، وكيف كان يُمجّد يوليوس قيصر، ثم، **بمهارة بروتوس وخطبة مارك أنطوني**، ينقلب الجمهور، ويصبح رعاعًا يُحطّمون ويقتلون.

جمهور شكسبير(في هذا المشهد) بلا ثبات، يتبع من يتكلّم أولًا، ويُصفّق لمن يَعِد أكثر.. هو جمهور الخِطاب، لا جمهور القيم.

من جديد:

سأعود هنا لأستحضر وقائع الحروب الأهلية، واظن أن **سوريا اليوم تشهدها فالقبائل هاجمت قرى الدروز**، وأحرقت ٣٢ قرية بالكامل، كما تفننت في ارتكابات الجرائم والاهانة لكل الناس، **ومارست أشنع أشكال التعذيب والامتهان لرجال كهول وعجائز**، بدءاً من حلق الشوارب التي تتصل بالرجولة في مفهوم الدرزي، وصولا لاستباحة الأرزاق .. في حال السويداء كمثال، **سنجد أنفسنا بمواجهة القطيع/ التماهي/ النكاية/ التطهّر/ الرغبة في العقاب/ الهوية المتوترة**.. سيكون هذا المثال اختباراً لما أسميته **«الجمهور القاتل»**.

قد يكون هذا المثال السوري، هو **المرآة المعاصرة** التي تنعكس عليها كل المفاهيم النفسية والاجتماعية التي استعرضتها فيما سبق، من **غوستاف لوبون إلى فروم**.. من الجماهير إلى «القطيع»، من الطاعة إلى الغدر، عبر مشهدية حيّة ومفجعة، ومركّبة أيضاً.

سوريا بوصفها مختبرًا مفتوحًا.. حين ينفجر ما تراكم في القاع:

سوريا بعد ٢٠١١ لم تشهد حربًا أهلية بالشكل الكلاسيكي، بل شهدت شيئًا أعقد، تفكّكًا بطيئًا في النسيج الاجتماعي، وتحوّلًا تدريجيًا في وعي الجماعات، حيث **أُطلق العنان للهوية حين يُنزع عنها القيد السياسي، لكن دون بديل أخلاقي أو وطني أو حتى مجهول**، من هذا التمزّق ظهرت صورة «الجمهور القاتل» بصيغ متعدّدة، لكن ماحدث في السويداء

وريفها، من استباحة القرى الدرزية على يد «**الجمهور القاتل**»، يمكن النظر إليه كنموذج صارخ للانفجار الداخلي المعبّر عنه بـ :

- **النكوص إلى القبيلة.**

- **الثأر المتوحّش المقنّع بالفقه الديني.**

- **استدعاء خرافات القوة أمام مأزق الفشل العام.**

- **تفريغ الغضب الجمعي على أجساد العاجزين.**

في هذه المجزرة، لم يكن الجناة بالضرورة «وحوشًا» بحدّ ذاتهم، كانوا أبناء البلد ذاته، لكنهم حين اتّحدوا، أصبحوا أكبر من مجموعهم، وأصغر من ضمير فرد واحد، يتصرف الفرد في القطيع كما لو أنه غير مسؤول، كل شيء يصبح «قرار الجماعة»، حتى الجرائم، تنشئ أخلاق جديدة داخل القطيع:

- البطولة هي التعذيب.

- الشجاعة هي السبي.

- الرجولة هي حلق شوارب المسنين أمام أبنائهم وكامیرات الهواتف المحمولة.

بعض المهاجمين أنفسهم كانوا ضحايا في مراحل سابقة، لكن ما أن أُتيحت لهم السلطة (ولو ببندقية واحدة)، **حتى تماهوا مع صورة القامع القديمة، وأعادوا إنتاجها بشكل أعنف.**

يقول إريك فروم، وأردّد معه :

- **السلطة التي خضع لها الإنسان، إن لم يتمرّد عليها، سيحاكيها.**

السلطة هنا ليست فقط «النظام» فحسب، بل كل ما مثّل القوة التي أذلّته، وها هو الآن يعيد المشهد، لكن بوجه جديد، ولشخص أضعف.

الهجوم على القرى الدرزية لم يكن فقط بدافع «الغنيمة» أو «العداوة المباشرة»، كان انتقامًا كامِنًا من فئة صمدت حين انهارت البقية، ومن جماعة تحتفظ بكرامتها رغم العراء العام، **هنا يصبح الجمهور قاتلًا**

بدافع «النكاية»، يرى في صمود الآخر تذكيرًا بانهزامه، وفي شارب العجوز، تذكيرًا برجولة لم يعد يمتلكها، وهكذا فالنكاية هنا لاتقتل لأنها غاضبة، بل لأنها تشعر بالدونية.

حرق القرى بالكامل/ إذلال العجائز/ استباحة النساء/ تصوير الإذلال ونشره، **كأنها «قرابين» تُقدّم لتطهير الذات الجماعية من شعورها بالعار**، كما في «التضحية بالبشر» عند حضارات قديمة.. هنا يُذبح الآخر كي يشعر القاتل أنه نجا، أو تطهّر، أو استعاد رجولته.

ماحدث في السويداء، ليس مجرد جريمة حرب، بل هو تمرين حيّ على كيف يتحوّل الجمهور إلى آلة قتل، لا لأنها شريرة، بل لأنها مكسورة.

هل يسعني أن اكتب:

- ختاماً؟

نعم، أظن أنني استهلكت ذاكرتي، فلقد أراد هذا البحث (**القائم على التداعي لا على الصرامة العلمية أو الاكاديمية التي تستهوي المثقفين**)، أن يتقصّى مسارات «**الجمهور القاتل**»، لا بوصفه حادثة استثنائية، بل باعتباره لحظة تَعرٍّ للإنسان عندما يتخفف من فرديته ويلتحق بغريزة القطيع.. رأينا كيف يمكن للجمهور أن يرفع الأفراد إلى مقام الآلهة، ثم لا يلبث أن يُسلمهم للذبح في ميادين الغضب أو الخذلان.. **تتكرر هذه الدورة المأساوية في السياسة كما في الدين**، في الملاعب كما في الساحات الثورية، في الحروب الأهلية كما في حفلات الإعدام الرمزي التي يقيمها الناس لبعضهم على أرصفة الذاكرة الجماعية.

إننا إذ نتأمل في مصائر من كانوا رموزًا وسقطوا تحت سطوة الجمهور نفسه الذي صنع مجدهم، لا نعيد فقط قراءة تلك المصائر، بل نعيد مساءلة البنية النفسية للجماعة، وحدود المسؤولية الفردية داخلها، فما الذي يجعل من إنسانٍ ما، إلهًا، ثم يلتهمه؟ وما الذي يجعل من الجموع

سُلطة مطلقة، إذا تحرّرت من الضوابط، وإذا اختلطت في داخلها الهويات، وتماهت الأصوات حتى تلاشى الضمير الفردي؟

ليست «الوحشية» صفة استثنائية تقتصر على فئة دون أخرى؛ بل هي كامنة في نسيج الجماعة حين تُترك لغرائزها دون وعي، ودون مساءلة، **وقد يكون أخطر ما في الجمهور القاتل**، أنه لا يحتاج دومًا إلى محرّض خارجي، بل يكفيه وهم الخلاص أو الخوف أو وهم العدالة، حتى يفتك بما كان يؤمن به بالأمس القريب.

في النهاية، يظلّ سؤال الإنسان أمام «الجمهور» معلقًا:

- هل يمكن للفرد أن ينجو من غواية الجماعة؟ وهل نستطيع أن نربي في الإنسان مناعةً ضد القتل باسم الأكثرية؟

أسئلة تبقى مفتوحة، تمامًا كما يبقى التاريخ شاهدًا على ما لا يُفهم إلا بعد أن يقع.

- وها أنذا، وانا اكتب الجملة الأخيرة من هذا التداعي، أتساءل:

- ما بعد كتابي هذا، هل سأكون مضغة بين أنياب «الجمهور القاتل»؟

الجمهور الذي يرى بي «درزياً» يكتب عن «مجزرة» اجتاحت أهله، دون أن يفكّر ولو للحظة، بأن المشهد يستدعي صرخة ضمير «عابرة للطوائف».

برلين ٨ آب ٢٠٢٥

هنا تبدأ حكاية الجمهور القاتل، ففي كل دكتاتور يسكن الطغيان، يسكنه أيضًا "جمهور".. لا يقوم الشيطان وحده بأعماله، هناك دائمًا مَن يُمهّد له الطريق، ومَن ينفّذ، ومَن يصفّق، ومَن يضحك، لكن هناك طبقة أكثر خطورة: أولئك الذين يصمتون.. شهود الظل.

هؤلاء لا يُمسكون السلاح، لا يُصدرون الأوامر، ولا يُلقون الخُطب، بل يكتبونها، ينسخونها، يسهرون على إخراجها بلا أخطاء.